البـاب الثانى

مجرد ذكريات: الجزء الأول
مذكرات الدكتور رفعت السعيد

---

obeikan.com

obeikan.com

(١)

يحتل الدكتور رفعت السعيد مكانة متميزة بين اليساريين المصريين فى جيله، فهو أول مدنى يصل إلى رياسة الحزب اليسارى المصرى الوحيد الذى نشأ بموافقة الدولة، وقد وصل إلى هذه الرئاسة بعد أن عمل طويلا فى صفوف هذا الحزب الذى جمع فصائل مختلفة من اليساريين، وقد عمل من قبل تأسيس الحزب بالقرب من رئيسه الأول خالد محيى الدين بكل ما يمثله ذلك الرجل فى الحياة السياسية فى عهد الثورة! كما أنه ظل لفترة طويلة بمثابة الدينامو المحرك لهذا الحزب، وهو قبل هذا وذاك ذلك الرجل الذى يصدق عليه قول القائل: إنه نشأ يساريا، وعاش يساريا، ولا شىء غير اليسار، ذلك أنه قُبض عليه وحرم من حريته ولما يبلغ السن القانونية للتمييز، وإن كان قد بلغ حكمة هذه السن أضعافا مضاعفة! بوقوعه فى القبض، والاعتقال، والسجن، وفقدان الحرية وما استتبعها.

وقد كان رفعت السعيد أصغر يسارى مصرى يتعرض لفقدان الحرية، وقد ظل فى السجن أعواما متصلة خرج منها إلى الحياة العامة يساريا متسلحا بروح اليسار، وأدبيات اليسار، وشهادة الاعتماد الكبرى فى حياة اليساريين، وهى السجن وما يحمله من دلائل العذاب والاغتراب!!

وقد أتيحت للدكتور رفعت السعيد فرص واسعة وحقيقية للدراسة والعمل والاطلاع والارتحال فى خارج مصر فانتهزها على أفضل صورة ممكنة، وكان من الذكاء بحيث لم يدع فرصة من هذه الفرص تقوده إلى غربة دائمة أو غربة طويلة الأمد، وإنما استغلها بحيث صارت مراحل أساسية ومحورية فى تكوين ذكى طوعه صاحبه الذكى لما يريده من نفسه.

والحق أنه نجح فى رسم مسار حياته كما لم يتح لغيره من أهل اليسار، كما نجح فى قطف ثمار هذه الحياة كما لم يتح لغيره من أهل اليمين. وقد مارس الكتابة، والصحافة، والتأريخ، والجدل، والفكر، والدعوة، والحياة البرلمانية والمعارك السياسة، والعلاقات الدولية، ونجح فى كل أولئك بأقدار متميزة، وقد شهد له بالكفاءة أعداؤه وأنصاره ومحبوه، حتى وإن انتقده بعضهم فى توجه هنا أو هناك أو هنالك!

(٢)

آثر الدكتور رفعت السعيد أن ينشر مذكراته فى خارج مصر، ثم واتته الظروف بسرعة لكى يعيد نشرها (ضمن كتب مكتبة الأسرة) فى فترة قريبة جدا من نشرها لأول مرة.

وقد أتاح هذا النشر الثانى فرصة واسعة للمذكرات كى تُعرف وتُقرأ، لكن بعضا من صحافتنا المهمومة ببعض القضايا التقليدية لم تفوت فرصة حديث المذكرات عن بعض أحداث عهد السادات وشخصياته، فنقلت بكثرة ما رواه رفعت السعيد عن بعض هذه الأحداث من دون أن تعنى بالمذكرات ولا بما فيها من درر دالة على حياة متميزة فى فترة متميزة، وفى مواجهة ظروف فريدة.

(٣)

نبدأ فنقول: إن مذكرات رفعت السعيد فى جزءها الأول تقدم كتابة فنية ذات مستوى رفيع عن ملامح تكوين واحد من أبرز اليساريين المصريين الذين قدر لهم أن يتغذوا على الأفكار الماركسية منذ عرفوا القراءة والتأمل، ومنذ قدر لهم أن يقرروا المصير الذى يختارونه لعقلهم وفكرهم، ومن حق جيل رفعت السعيد أن يفخر بما أتيح له من فرصة نادرة لتحقيق هذا الاختيار المبكر والحفاظ عليه على هذا النحو الدءوب، وهو ما لم يتح بهذه السلاسة للجيل التالى لجيل رفعت السعيد، وهو جيل فرض عليه أن يرضع الشمولية، وأن يهضمها، وأن يتمثلها، وأن يعيد إنتاجها، ومن ثم أن يفرضها على كل فكر يسارى قدر له أن يعتنقه أو أن يدعو إليه.

وقد أحسن الدكتور رفعت السعيد صنعا حين جعل مذكراته تنتهى عند نهاية عبد الناصر تقريبا قبل أن تتاح له رحلة الحياة الأخرى التى عاشها فى عهد السادات، دارسا للتاريخ، وممارسا للسياسة العلنية على نطاق أرفع درجة من ممارساته المبكرة طيلة عهد عبد الناصر الذى فرض عليه سجنا إجباريا دام لأكثر سنوات هذا العهد الناصرى، ثم فرض عليه صراعا جديدا عند القمة لم يكن مستعدا له ولم يكن متصورا أن تاريخه سيقوده إليه من السجن مباشرة!! وربما أن الرجل لم يكن متصورا لفكرة أن يخرج من السجن إلى مثل هذا الصراع، لكنه مع هذا كان قد تأهل للانتصار فى مثل هذا الموقف أو لما هو أكثر منه بفضل التجربة النفسية العميقة التى عاشها فى السجون الناصرية بكل ما كان فيها من حوار على حد وصفه، أو على حد تعبيره الاستعارى.

(٤)

نبدأ مدارستنا لهذه المذكرات بالحديث عن أقسى موقف واجهه صاحب هذه المذكرات حين كان عليه أن يضحى بمشاعر أسرته جميعا من أجل ما يعتقد، وهو الذى لم يخرج من السجن إلا أياما قليلة فى نهاية ١٩٥٨، وكان فى وسعه ساعتها أن ينهى تجربة الألم الذى سببه لوالده ولوالدته ولأخوته، لكنه، كما يصور نفسه بنفسه، كان قد قرر من تلقاء نفسه أنه لا يليق به أن يترك الكفاح ولا أن يترك فرصة الهرب ولا حتى فرصة السجن من جديد كيما يدافع أمام نفسه عما تعتقده نفسه.

وهو يصور حيرته فى ذلك اليوم بعد أن ركب تراماواى (٤) من شارع خيرت إلى الفلكى حيث لم يجد الأستاذ مبارك الذى أخذه البوليس فى الفجر، ثم يعود فى الترام (٤) إلى شارع خيرت ومنه إلى شارع الجامع الإسماعيلى حيث بيت رفيقه محمد حجازى فيجد أخاه أحمد واقفا فى ركن قصى وكأنه قد أعد كمينا له لينبهه إلى ما حدث من القبض على محمد، ثم هو يتجه إلى دار الفكر فإذا بالبواب النوبى الأصيل يشخط فيه فى حنان وينبهه إلى الانصراف بسرعة لأن البوليس فى الشقة ينتظر أن يقبض على أى أحد من رفاقه، وهو يتوجه إلى شقة رفيقه فاروق ثابت فوق محل جروبى فى شارع عدلى فيجده لايزال نائما من آثار سهرة رأس السنة، ثم هو يتوجه إلى الموسكى ويلقى رفيقه محمد وزوجته كريمة، وفى وسط كل هذا البحث الحائر والهادف معا يسائل نفسه عن الطريق الصائب فى هذه للحظة الفارقة:

«وبدأت أسأل نفسى: وأنت ماذا ستفعل؟».

«انغرس هذا السؤال فى عمقى ليطرح وبسرعة غريبة مئات أخرى من الأسئلة، أية بكتيريا هذه التى تتكاثر بسرعة سريعة».

«أسئلة من نوع: الحزب وحاجته لجهودى (ولم أكن أعرف بعد مدى اتساع حملة القبض، ومن ثم مدى الحاجة إلىّ) المهمة الموكولة إلىّ: السجناء وعائلاتهم، ها هى عائلات أخرى تضاف إلى تلك المعلقة فى عنقى. ترى كم عددها؟ المراقبة وهل أخضع لها؟ وماذا لو استرخيت فى البيت فأتوا بعد يوم أو يومين ليأخذونى؟ وفى زمن الملاحقة هذه هل يجوز لمسئول أن يبقى فى بيته، ثم يخرج محملا باحتمالات مراقبة بوليسية ليقابل الآخرين ناقلا إليهم جرثومة الوباء البوليسى؟».

«أبى وأمى وأخوتى؟ أقاربى الذين تستعد وفودهم أن تفد من المنصورة للتهنئة، تركوا لنا الأيام الأولى ويستعدون الآن للمجىء. جلال أخى الذى تركته صغيرا جدا ولم أره بعد».

«هذا العبد الناصر لماذا فعلها؟ ولماذا حدد هذا الموعد بالذات الذى يضعنى شخصيا فى مأزق جارح؟ ولماذا اختار التصادم العنيف؟ (ألقى بأكثر من خطاب صارخ العداء، لكن رفاق «حدتو» كانوا مطمئنين، ألم يخاصموا بعض رفاقهم دفاعا عن الدفاع عن عبدالناصر)، والغريب بل والمريب أن حملة القبض طالت رفاق «حدتو» بأكثر مما طالت غيرهم، وفسرها المفسرون منهم فى تمسك بحسن النية الذى كان يغلف كل موقف لحدتو إزاء عبد الناصر، بأن جهاز الأمن يريد الوقيعة بين القوى الوطنية، ناسين حملة عبد الناصر، وناسين قبضته المحكمة والمتحكمة فى كل قرار».

«وتعود صورة أبى المريض، وأمى الخائفة دوما، لتتشابك مع صور رفاقى فى السجن، القدامى منهم والجدد، تتشاجر الصور مع بعضها».

(٥)

وتتعاقب الأحداث على رفعت السعيد وهو لا يدرى ماذا يفعل، وأى قرار يختار، وسرعان ما يلتقى بالشاعر كمال عبد الحليم فإذا به، وهو زعيمه أو رئيسه المسئول عنه

فى التنظيم، لا يرغب فى أن يقيده بقرار معين يصبح ملزما له، لكن رفعت السعيد فى النهاية يقرر بكل إيمان أن عليه أن يسرع بأن يترك هذه الحياة الطبيعية إلى حياة الكفاح مهما كلفه الأمر، وهو يصور الأمر فعلا إيجابيا تمثل فى التباطؤ عن أن يصل إلى بيته فى الموعد الذى حدده البوليس، كما أنه، وهذا هو المهم، يصور دافعه إنسانيا قبل أن يكون تنظيميا، فهو يظن نفسه قادرا على مساعدة الأسر قبل أن يصورها قادرة على قيادة النضال اليسارى فى الوقت الذى اعتقلت فيه القيادات، وهو ينسى فى هذا مساعدة نفسه ومساعدة أسرته هو نفسه:

«. . . فى الطريق تمهلت خطاى بالرغم منى، ليس تعبا، بل شىء آخر، لم تعد بها رغبة أن تسابق الدقائق المتبقية لتكون فى البيت قبل الخامسة، تراخت خطاى أكثر، لست أريد أن ألحق بموعد الخامسة، ثمة نداء مهيب يسيطر على داخلى، ويستدعينى إلى تلك الساحة المتداعية لعلى أستطيع أن أفعل شيئا، لعلى أقدم إسهاما ما، لعلى أمد يدا لهذه الأسر التى لم يتعود أكثرها على هذا النوع من الحياة المستعصية، لعلى أكون مفيدا لأحد».

«عندما دخلت كانت الخامسة إلا ربعا، بتاكسى أستطيع أن أسبق الخامسة وأنتظر الصول كأن شيئا لم يحدث طوال النهار، سأل محمد: عايز تاكسى؟ قلت فى هدوء لم أدر من أين استعرته: لا . . عايز ورقة وقلم، انفرجت أساريره، ألقيت على الورقة بضع كلمات سخيفة وغبية، لكننى لم أجد غيرها، أو لعلى لم أكن فى حالة تسمح باختيار غيرها، فمهما قلت: الكارثة هى الكارثة، وكتبت رسالة لأمى».

(٦)

ويجيد رفعت السعيد تصوير شعوره بالراحة النفسية حين قرر أن ينهى إلى والدته عن طريق الكتابة أنه عائد إلى عذاب الكفاح!! وهى التى لم تتمكن بعد من الفرحة بعودته من السجن الأول الذى غاب فيه خمس سنوات.

ومن المذهل أننا نرى رفعت السعيد يصور أجواء الحرية خارج إطار السجن والهرب على أنها «الرداء الخارج عنه»، ومن المذهل أيضا أن نراه يعبر عن سعادته بخلع هذا

الرداء، ومن المذهل ثالثا أن رفعت السعيد حين يروى هذا كله يعترف، من خلال رواية انفعالات كريمة، بمدى قسوته على والدته وأهله:

«. . . تطوعت كريمة (زوجة رفيقه محمد الزعفرانى) بأن تحمل الرسالة، استرحت لأول مرة منذ تركت السجن، لقد خلعت هذا الرداء الغريب عنى، وعدت كما أحب أن أكون، كل دقيقة تعنى أن قرارى بغير رجعة، فالصول سيبلغ بهروبى من المراقبة، والعقوبة السجن، وبعد السجن المعتقل».

«ثم أتت الخامسة، وانتهى الأمر».

«عادت كريمة متورمة العينين من البكاء، دموعها تسد الطريق أمام الكلمات، قالت كل ما كنت أتوقع وأكثر، الأم فزعت، صاحت: أبوه سيموت من الحزن، الأخوات تعالى صراخهن، سعيد قال: أبلغيه أننى لن أحتمل الحياة فى هذا الجو، سأسافر إلى ألمانيا فورا، امتلأ قلبى وفاض بحزن حقيقى، انغرس الألم عميقا وموجعا، للمرة الأولى صدقت أمى فالحزن يوجع أحيانا وجعا حقيقيا».

«أودعت كل هذه الكومة من الهموم فى قلبى بلا نسيان. احتفظت بها لتلازمنى طويلا، وحتى الآن، فكم قسوت على أسرتى، وعلى نفسى».

(٧)

وفيما قبل هذا يقدم رفعت السعيد صياغة جميلة فى فقرات أدبية عالية القيمة يصف فيها شعوره حين خرج من السجن بعد أول حكم عليه قضاه فيه كاملا، وهو السنوات الخمس، ومن العجيب أنه صادف الحقيقة المؤلمة وهى أن سجنه لا ينتهى إلا مع فجر عصر جديد من الاعتقالات الواسعة المكثفة لليسار المصرى، وهو يقدم القصة بكل رتوشها وتفصيلاتها مركزا على الجوانب الإنسانية الفارقة فى علاقته بأسرته الصغيرة: والده ووالدته وأخواته، وسنقتطف من فقراته المتواصلة بعض ما يصور بصدق شديد غربته فى يوم الإفراج عنه وعودته إلى أهله، وما قدر له أن يستمع إليه من حديث عبد الناصر الهجومى ضد الشيوعيين فى خطابه الذى كان يذاع على الهواء طيلة عودة رفعت السعيد من سجنه إلى أهله، وهنا يصل رفعت السعيد إلى ذروة بلاغية حين يلخص الموقف فى جملة واحدة يقول فيها: «انقبض قلبى الذى لم يفتح بعد»:

«. . . تراكمت الأيام حتى انتهت، فسنوات السجن مثل خيط، مهما استطال فهو إلى نهاية، ولكنها إذا تآكلت أوصلتنى إلى نهاية غير منتهية، فإذا اقتربت أيام السنوات الخمس من نهايتها كان الرثاء يخيم على كل الرفاق. فها هو الجو السياسى يكفهر بغيوم وصواعق، ظل جميلا ومشمسا وربيعيا طوال أعوام ١٩٥٥ـ١٩٥٨، وطوال هذا الجو الربيعى مع الحكم، أفرج عن المعتقلين (وبقى السجناء فى سجنهم)، وأمضى رفاقنا خارج السجن رحلة عمل نضالى ممتع ومثمر، وعندما يقترب موعد خروجى يكون التصادم».

«مضت السنوات الخمس وزادت يومين فى الإجراءات، طلب الرفاق إلىّ أن أطلب إلى أهلى تدبير مسكن فى حى السيدة، حيث الصول المكلف بمتابعة الخاضعين للرقابة الليلية (يبقون فى منازلهم من الغروب إلى الشروق نفاذا لحكم المحكمة. خمس سنوات سجن، وخمس سنوات مراقبة».

. . . .

. . . .

«كنا فى المساء، تسلمنى أخى سعيد من قسم بوليس السيدة زينب، وكأنه يتسلم طردا من مكتب بريد، وأسرعت بنا السيارة إلى البيت القريب».

(٨)

وها هو رفعت السعيد يروى كيف بدأ بالصدفة يستمع إلى خطاب عبد الناصر الشهير الذى كان بمثابة إعلان حرب على الشيوعيين:

«ليقطع الصمت القابع فى السيارة أدار مفتاح الراديو، كان عبد الناصر يقذف بخطابه الهجومى الشهير مساء ٢٦ ديسمبر ١٩٥٨، وانهمرت جمله الغاضبة تنصب على رءوس «الشيوعيين العملاء». انقبض قلبى الذى لم يفتح بعد، قذف أخى نحوى بنظرة مركبة فيها تحذير، وفيها رثاء، وفيها استعطاف، وربما تأنيب. تشاغلت عن نظرته، فقد كنت مشغولا بالزحام، وأضواء المحلات فى ميدان السيدة زينب الصاخب والممتلئ حيوية».

«أن تكون طليقا، وفى الشارع، وفى المساء. أن تكون كالبشر الآخرين، هذا شىء مبهر، ويملؤك بخدر لذيذ».

. . . .

. . . .

«والشىء الغريب فى السجن أنك ما أن تدخله حتى تشعر وكأنك به منذ ولدت، وما أن تخرج منه حتى تحس وكأنك خلعت عنك كل جراحه وندوبه من زمن بعيد».

. . . .

. . . .

«الأم، الأخوات الثلاث، انغمست فى أحضانهن معا، انهالت قبلات، ودموع، ودعوات أن يهدينى الله (وكأننى عاص)، وأن يمنحنى بعضا من تعقل (وكأننى مجنون). كان الأب راقدا فى فراش المرض، أجرى جراحة، لكن خطأ ما أعاق الجرح عن الالتئام، وكان لابد من البحث عن سبب، ومن الآن فصاعدا سأكتشف أننى، ووجودى فى السجن السبب فى الأمراض والأوجاع. الطبيب قال (وربما كان صائبا): عدم التئام الجرح سببه ضعف عام، وهل من سبب للضعف سواى؟ والأم تعانى من روماتيزم مزمن: «أنا كنت طوال عمرى كويسة متعبتش إلا لما أنت دخلت السجن».

. . . .

. . . .

«وعيناى تتبعان ما طرأ من متغيرات، كل شىء تغير، البنات تغيرن، تزوجن، وأكتشف الفارق فى الكلمات والتصرفات والاهتمامات».

(٩)

ويتحدث رفعت السعيد عن إحساسه بالغربة الذى يتزايد كلما اقترب من أهله الذين كانوا بالطبع بعيدين عن دنياه فى العمل السرى، وفى الشيوعية أيضا:

«وإذ أتقارب أكثر، تتباعد المسافات، حشرت نفسى وسط الجمع الذى احتاط بسرير الأب المريض، عيناه أرسلتا عتابا مريرا، تأوهاته كانت مرسلة نحوى، أو بالدقة

على موجتى، سهرنا طويلا، ثرثروا تكلموا، قالوا، ضحكوا، تندروا، وأنا أزداد اغترابا، أبتسم، وأضحك، وأرد باقتضاب بإجابات بلهاء، فلست فى هذه الليلة وبالذات مؤهلا لأى فهم أو تفاهم، فقط أريد أن أعتاد، فالفارق واسع بين ثرثرات الزنزانة، وثرثرات الأسرة، والمسافة لا يتم اجتيازها بسهولة، وأكتشف أننى نسيت هذا النوع من الحديث الإنسانى العادى، واعتدت على ما يسميه الناس رطانة أو لغوا سياسيا».

. . . .

. . . .

«الأم جاهرت من الوهلة الأولى بأنها أعدت لى ما أحب من طعام، نسيت أننى نسيت ما اعتدت أن أحب، هى لم تنس، صينية الرقاق، بط محشو بالأرز والبصل، والحلو عاشوراء: «ده مش موسمها، لكن عملتها لأنك بتحبها».

. . . .

. . . .

«ويستطيل الحديث وتروى واحدة من الأخوات كيف أن الأم حرمت عليهم أكل ما أحب طوال فترة غيابى.. آه.. نأتى مرة أخرى للحديث الموجع، والتنهدات، ودموع تنساب لتفسد مذاق الطعام، وغصة تسد حلقى، وتوشك أن تخنق قدرتى على التواجد معهم، فما أصعب هذا الإلحاح الودود والحميم والخانق معا».

(١٠)

ويجيد رفعت السعيد التعبير عن لحظات التأمل وما قاده إليه من تعميق الصراع بين الالتزام بما يعتقده وما يجلبه هذا الالتزام من عذاب للأهل، وفى وسط هذا الحديث لا يمانع رفعت السعيد فى وصف صوت عبد الناصر بالصوت الحقود:

«دخلت غرفتى، تمددت على سريرى، سرير حقيقى، ومرتب، ولحاف، وبطانية، وملاءات، ومخدة، وكل ما نسيت بالاعتياد على البرش الخشن، والبطانية الأكثر خشونة منه. كنت أتوقع أن أنام فورا مستمتعا براحة المكان، ومتخلصا من تعب الأيام السابقة، لكن النوم تمنع، وأبى أن يأتى».

«استعدت كل ما كان، المشاعر الدافقة، والأحضان الدافئة، والدعاء الممزوج بالإلحاح، والحب الممتزج بالتوجع، والرجاء بأن أرحم الجميع فأكف عن الخوض فى هذا الطريق، وتخيلت نفسى وأنا أرجوهم وأتوسل إليهم بأن يرفعوا عن كاهلى عبء محبتهم الدافقة، وحنانهم الكثيف، وإلحاحهم غير المجدى، وإرهاقهم لضميرى، إذ يجعلون من التزامى بما أعتقد عبئا عليهم، وعذابا لهم».

«وفى الصباح الذى انتظرته طويلا تأهبت للخروج، وانسابت نظرات متسائلة فى صمت: إلى أين؟ وكل النظرات، وكل الأسئلة تتجمد فى حدود محدودة، هل ستذهب إليهم؟ إلى رفاقك؟ أم ستنساهم وتتجاهلهم؟».

«كان الراديو مفتوحا، وكان مصمما على إفساد كل شىء، فهو يستعيد للمرة العاشرة (وربما أكثر) خطاب عبد الناصر، ويختار وبإلحاح وتكرار ضاغط هجماته على «الشيوعيين العملاء»، وكنت محتاجا أن أفلت من ذلك كله، من حصار الأعين، والصوت الحقود المتصاعد من الراديو (. . . هكذا يصف رفعت السعيد الرئيس عبد الناصر.. ولسنا نستطيع أن نقول: وله الحق فى ذلك، لكننا نستطيع أن نقول: وله العذر فى ذلك)، وتركت المكان».

«لكن سؤال من أمى لدغنى وأوجعنى بشكل مباشر، ولعلها قالته فى براءة بريئة: هل ستذهب للجامعة؟ وهكذا يكتسب الوجع عمقا حقيقيا، فأنا فى السادسة والعشرين، ولم أزل متعلقا بالسنة الثالثة من كلية الحقوق».

(١١)

ومن الغريب أن يعترف رفعت السعيد أنه كان من الممكن له فى بداية عهد الثورة أن ينجو من الحكم بخمس سنوات من الأشغال الشاقة، لكنه أضاع هذه الفرصة أو ترك هذه الفرصة تضيع حين أطاع تعليمات المسئول عنه فى التنظيم الشيوعى الذى كان ينتمى إليه.

ومع أن رفعت السعيد يقدم القصة على نحو سريع وخاطف، إلا أن دلالاتها كثيرة ومتعددة، وهى دلالات واضحة ومعبرة وليست فى حاجة إلى تعليق!! وقد أجاد

صاحب المذكرات تقديمها بما يوحى بما فى دلالاتها من معان ظاهرة، ومعان عميقة أيضا، لكن أهم هذه الدلالات هو التصوير الجيد الذى يقدمه رفعت السعيد لموقف حركة «حدتو» من ثورة يوليو وكيف كانت معاناتها من عقدة تأييدها المبكر للثورة تدفعها إلى الوقوع فى خطأ الهجوم على الثورة، وما كان يستتبعه هذا من إتاحة الفرصة للثورة نفسها لتتهم «حدتو» بما من شأنه أن يضع أفرادها تحت طائلة العقاب!! وأن يدفع بهم إلى العقاب بالفعل.

وهكذا راح رفعت السعيد نفسه ضحية لهذا الموقف المركب على نحو ما نلمس فيما يرويه:

. . . .

. . . .

«. . . وكنا نقترب من زمن للمحاكمة، والقاضى هو المستشار «م.ع» عرف الجميع عنه أنه يتلقى قائمة الأحكام من الأمن، ويجلس فى الجلسات غير منصت، ثم يتلو ما تلقاه من أحكام».

«وطبعا».

«مَنْ يهن يسهل الهوان عليه».

«فإذا كان قادرا على أن يتقبل أوامر من الغير، فلم لا يفعلها لحسابه، واختار من بين الأسماء مَنْ يستطيع أن يدفع، وبلا مقدمات زارت محامية شهيرة تمت له بصلة القرابة أبى لتعرض عليه صفقة غريبة».

«الإفراج بدلا من خمس سنوات سجن أشغال، مقابل خمسة آلاف جنيه، السنة بألف جنيه (وبمعيار هذا الزمان يبدو المبلغ مبالغا فيه)، واشترطت أن يصمت الفتى أثناء المحاكمة فلا ينطق بخير أو بشر (كانت حدتو لم تزل تعانى من عقدة تأييدها لحركة الجيش، فمارس شبابها هواية الدفاع السياسى بمناسبة وبلا مناسبة، يهاجمون الحكم، يفرغون من أعماقهم غضبا غاضبا يتخذ بذاته دليلا لإدانة مَنْ لا دليل قضائى ضده)، حضرت أمى لزيارتى تحمل البشرى وتلح فى القبول، أسرعت هامسا لمسئولى طالبا منه قرارا».

(١٢)

وتأتى لحظة الحل أو بالأحرى لحظة التعقيد وخلق المشاكل، وها هو المسئول عنه فى العمل السرى لا يرضى له حرية مقابل المال، بينما غيره عاجز عن المال الواهب للحرية:

«كان المسئول هو الرفيق سعد رحمى، كان وترا مشدودا بأشد ما يمكن من تشدد، وما أن تتلمسه حتى تنطلق معزوفات الهجوم والإدانة للحكم ولتصرفاته».

«انتفض المسئول لمجرد سماع الفكرة، فإذا كان الأغنياء يفلتون بجلدهم فما حال الفقراء؟ ثم ومَنْ سيدافع عن خط الحزب وسياسته إذا كان الكادر الأساسى فى القضية سيصمت؟».

. . . .

. . . .

وهنا يعقب رفعت السعيد بسرعة فيقول:

«كان مثل هذا الدفاع مجرد تسجيل موقف، بل يوشك إذ أنظر إليه بعينى اليوم أن يكون عملا طائشا، فالجلسات سرية، فإن خاطبت ستخاطب قاضيا لا يختلف فى كثير أو قليل عن رجال الأمن، بل إنه لم يكن ليسمح لنا بالقول ليستدرجنا كى نكتب، فيريح نفسه من الاستماع، ويضمن ألا يسمعنا أحد، ثم ها هو يتلقى دليلا خطيا قدمناه نحن ضد أنفسنا، والغريب أننا من فرط حماسنا كنا نقضى الليل منحنين ونحن (جالسون) القرفصاء، مستخدمين غطاء جردل المياه لنستند إليه فى الكتابة، ثم نتسارع فى بداية الجلسة لنقدم أوراقا لن يقرأها أحد، لكنها تضفى على أحكام سبق وضعها قبل المحاكمة، صفة المشروعية».

. . . .

. . . .

(١٣)

ثم يعترف رفعت السعيد بأنه اتخذ قراره الخاطئ برفض الوسيلة المتاحة التى كانت

كفيلة بخروجه من السجن وإراحته من الأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات خوفا من أن يتهم بالتخاذل، وهو يعترف بالخطأ، ربما ليبرر مواقف تالية ! :

«انتفض الوتر المشدود، عزف كل المعزوفات التى تعزف كل يوم، ولم أجد مجالا لنطق، فلو تعلق الأمر بغيرى لقلت حججا كثيرة، أن يفلت واحد، فى زمن تحتاج فيه حدتو إلى أى جهد بالخارج، وعشرات من حجج تمتلك قدرا من المعقولية لَمنْ يمتلك عقلا عاقلا، أو يمكنه أن يتيح لها العقل مساحة من الفعل، لكن الأمر يتعلق بى، وما أسهل أن أتهم بالضعف، والتخاذل وأشياء كثيرة أخرى».

«فتحليت بالصمت المحكم وغير الحكيم، وضاعت الفرصة، وبالفعل كان الحكم كما وعد سيادة المستشار، أو كما توعد».

«خمس سنوات أشغال شاقة».

(١٤)

وبعد أن يتناول رفعت السعيد قصة الإفراج عن مجموعة من زملائه السودانيين على يد المحكمة، يعلق على تصرفه هو وموقف القاضى فيقول:

«على أية حال نفذنا أوامر المسئول، تشددنا فى هجومنا المشدد على القاضى وعلى النظام، ووقعنا، وبرضاء مشغوف فى فخ كتابة دفاعاتنا، مقدمين أدلة خطية ضد أنفسنا، وجدها هو سببا سهلا لإنفاذ الأحكام التى صدرت له، ضد متهمين لم تكن ثمة أدلة جنائية ضدهم».

. . . .

. . . .

(١٥)

ونحن نرى هذا التعقل الواضح (فى الحكم على سلوكيات اليساريين الملتزمين أو المتشددين) يسيطر على تصرفات رفعت السعيد التالية، وعلى سبيل المثال فإنه بعد أن يصل إلى نهاية قصة من قصص الصراع الداخلى مع زملائه اليساريين يلخص موقفه الناقد للأسلوب اليسارى الخاطئ فى ممارسة بعض المعارك فيقول:

«. . . وخضت معركة، بل معركتين، معركة ضد موقعى البيان، ومعركة ضد مَنْ يمارسون معركتهم بأسلوب خاطئ، وغير سياسى، وغير متحضر، بل وغير إنسانى».

«وحملت فراشى. . تاركا الزنزانة الانفرادية، لألقى بنفسى فى بيت النار المشتعلة».

(١٦)

على هذا النحو من التعبير الصادق عن مشاعر الاغتراب تمضى مذكرات رفعت السعيد، حتى كأنما المذكرات كلها اغتراب فى اغتراب، وكأنما حياة صاحبها لا تولد إلا الاغتراب، لكن رفعت السعيد فى ذكاء شديد يبدأ ذكرياته على نحو يصور لنا أنه كان فيما احتفظ لنفسه من حياة متفقا مع نفسه، ومع تكوينه، ومع أصوله، ومع بيته، ومع بيئته، بل إنه فى بداية مذكراته يحرص على الفخر بأنه من نسل رجل مات شهيدا وفديا وهو جده لوالدته، وهو يصور ذكرى جده على نحو ما مضت: قبر ضاع، ثم نصب تذكارى فى عهد الوفد ١٩٣٦، ثم يد همجية فى ١٩٤٦ تدمر النصب، ثم ها هو رفعت السعيد ينتقم بكفاحه المتصل من كل هذا الظلم على قدر ما يتاح له:

«. . . الأم ابنة شهيد، تاجر أقطان اسمه عوض سلامة، كان وفديا متحمسا، وعندما حضر النحاس باشا إلى المنصورة فى زيارته الشهيرة التى انتهت بمأساة وصدام عنيف، خرج عوض أفندى مع آلاف غيره يتحدون حكومة الطاغية صدقى ويعلنون تمسكهم بدستور ١٩٢٣، ويهتفون «يحيا النحاس باشا» «يحيا الدستور»، ثم رصاص وعصى وسناكى وخيول تدهس المشاغبين، ويفقد عوض أفندى ما تبقى من حياته من زمن (يذكر التاريخ المكتوب اسم سينوت حنا كبطل لهذه الواقعة لأن يده أصيبت بطعنة سونكى، فقد كان واحدا من الصفوة، أما عوض أفندى سلامة وعديد مثله من الأفندية فقد أشاح التاريخ بذاكرته عنهم)».

«غاب عوض أفندى عن البيت أياما، ولم يعرف أحد ماذا حدث له، فالبوليس بعد أن فرق المتظاهرين حمل الجرحى إلى السجن، والموتى إلى مقابر مجهولة، وبعد عذاب طويل عثروا على قبره، وتجاسر البعض فوضع على القبر قطعة رخام عليها اسمه وتسبقه كلمة شهيد».

«وأتت حكومة الوفد، وفى عام ١٩٣٦ أقاموا فى منتزه الكنانى القريب من بيتنا، وبجوار كشك الموسيقى الجميل، نصبا تذكاريا من رخام أبيض مشرب بالحمرة، وكثيرا ما كانت الأم تصحبنا فى وقار إلى المنتزه القريب من بيتنا لتصعد أعيننا الصغيرة إلى أعلى ونقرأ «فى سبيل الوطن والحرية استشهدوا»، ثم قائمة بالأسماء من بينها «عوض سلامة».

«وفيما بعد فهمت القيمة والمغزى، وترددت كثيرا أطالع الاسم، أقرأ القائمة، وأراجع الأحرف لأتأكد أنهم نسجوها بدقة وحنان».

«وجاء الطاغية صدقى ليحكم مصر من جديد عام ١٩٤٦، وذات يوم مررت عبر المتنزه لأجد النصب التذكارى وقد أصبح كومة من رخام ممزق، وكأن يدا همجية دمرته بضربة واحدة ولم تعن حتى برفع بقاياه».

. . . .

. . . .

وها هو يصل إلى أن يقول:

«ولعل المرارة التى تراكمت فى صدرى وفمى، كانت أحد بواعث انغماسى فى مظاهرات ١٩٤٦، ومن ثم انغماسى فى السياسة».

(١٧)

ويمضى رفعت السعيد فى هذا التصوير الجيد لروح البيت التى دفعته إلى هذا الطريق الشاق حتى يتحدث باعتزاز ذكى عن إصرار جدته الوطنية الواعية الذكية على زيارته فى المعتقل وتشجيعه على موقفه الذى دفعه إلى هذا الاعتقال، بل إنها تضرب له المثل فى القدوة بزعيم الأمة سعد زغلول باشا:

«. . . وفى هذه الغرفة (الحديث عن غرفة السجن) أقمنا عدة أشهر، كان أبى يحضر لزيارتى، يذهب إلى غرفة رئيس النيابة ويأخذنى عم عبده إليه، يتركون الغرفة لنا، ولا أجد ما أقول، ولا يجد هو ما يقول، سوى: إزيك، عايز حاجة، صحتك كويسة، ثم ينصرف».

«وألحت جدتى أن تزورنى، وبمجهود شديد أقنعوا البيه المأمور، ووافق وهو يتلفت رعبا، كانت الغرفة تضم بعض الضيوف الذين صمموا أن يبقوا كى يتفرجوا على أحد الشيوعيين، ويبدو أن أحدهم قد صدم وصاح: ده عيل صغير، وصدمت أنا أيضا، أما جدتى فلم تجد ما تقول سوى أن صرخت بصوت يلم علينا الدنيا:

«ما تخافشى ياحبيبى، متزعلش، سعد باشا انسجن».

«واعتبر المأمور ذلك تحريضا وأنهى الزيارة سريعا».

(١٨)

وفى وسط كل هذا الحديث الباعث على التعاطف مع صاحبه، والأسى له، يخصص رفعت السعيد فصلا مثيرا بعنوان «الحب عبر القضبان» يبعث على الأمل والسعادة والفرح مع صاحب المذكرات حين يتحدث بنشوة وبخجل شرقى معا عن بداية حبه لزوجته الفاضلة التى شاركته الكفاح والسجن، ونحن نراه متمتعا ببراعة فنية مقتدرة تجعله لا يقدم لنا الحديث فى صورة مباشرة، لكنه يقدمه من خلال دهاليز حديث عن معاناة السجن، وكأن هذا الحب زهرة نبتت رغم الأشواك، وفى الأشواك، وعلى الأشواك:

«كانت البداية بعد يوم أو اثنين من اختفائى فى بيت محمد الزعفرانى، لجنة العائلات، مارى بابادوبلو، قدرى شعراوى.. وليلى، وكانت غيوم كثيفة تحلق دوما فى رأسى، فالمسئول الهارب ليس من حقه أى شىء، لا لعب، ولا إعجاب، ولا حتى التأمل، لكننى امتلكت رغبة للتأمل قاومتها بشدة عنيفة».

«وتوالت لقاءاتنا لنقترب أكثر، فأكثر، وفقط، فالغيوم المستبدة بى تفرض حاجزا مدببا يدمينى كلما حاولت اجتيازه، لكننى بدأت أشعر بأننى أفتعل المقابلات، أفتعل تقاربا منها، وأفتعل أن نكون منفردين، ولكن ذلك كله كان يتم فى إطار من الحماس للعمل، ودون أى انفلات من القالب المحايد الذى يغلف تصرفات وكلمات المسئول».

«وقبض علىّ. كانت أول وخزة شعرت بها عندما استقرت أنفاسى أن موعدها كان فى الغد، ستأتى ولن تجدنى، فهل ستتهمنى بالتقصير؟ حتما ستعرف أننى قبض علىّ، فهم يعرفون التزامى بدقة المواعيد».

«وفى سجن مصر زارتنى كريمة (زوجة محمد الزعفرانى)، همست عبر السلك الفاصل ببعض معلومات عن العمل التنظيمى، ووجدت نفسى أوجهها للاتصال بليلى، وترتيب أمر ما معها، ثم وجدتنى أطلب منها أن تحضرها معها فى الزيارة القادمة».

«ولمحت ابتسامة ماكرة تطفو على وجه كريمة».

«وبعدها بأيام حضرت كريمة ومعها ليلى، وتباعدت كريمة فى مكر مضاعف، ولم أجد ما أقول لكننى أحسست بسعادة غامرة، وأحسست أنها أحست بذلك، كلفتها ببعض الاتصالات المهمة».

. . . .

وسرعان ما تأتى نهاية مؤقتة للسعادة، أو فاصل من إعلانات الألم بتعبيرات التليفزيون:

«وطلبت أن تحضر ثانية، ولم تحضر، هى أيضا تخلفت كما تخلفت. . وأتى نبأ اعتقالها».

(١٩)

ومن أطرف ما فى هذه المذكرات الحافلة بالإنسانية والدراما أن نرى رفعت السعيد وقد استعذب مبكرا سلطاته المعنوية (!!) فى الشيوعية، فقد كان فى وسعه، حسب تصور البسطاء، أن يعطى شهادة تعفى حائزها من دخول الجيش، وذلك طبقا لقاعدة استنتها الثورة عقب قيامها مباشرة:

«. . . وتصبح الشيوعية فى ١٩٤٨ واقعا فعليا هناك، أما فى ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢ فهى تصبح ملء السمع والبصر، وتصبح منافسا للجميع، إلى درجة أن الأمن (بعد ثورة يوليو مباشرة) بدأ يتحسب من تجنيد أبناء قرى بأكملها حتى لا تتسرب الشيوعية من جديد إلى صفوف الجيش».

«وذات يوم أتى فلاح مسكين إلى ورشة أبى، وبعد حديث فلاحى ماكر ومغلف بالشكوى من أحواله السيئة، وابنه الذى هو عائل الأسرة الوحيد، بعد دورة كاملة

وماكرة أفصح الفلاح عن مطلبه «أن يعطى البيه الصغير (الذى هو أنا) شهادة لابنه بأنه شيوعى علشان ما يخدوهوش الجهادية».

«وانفجر الأب مرتين، مرة فى الفلاح المسكين، ومرة فى «البيه الصغير».

(٢٠)

يحاول رفعت السعيد بمهارة شديدة أن يلخص عقيدة البسطاء تجاه الحبس والسجن وفقدان الحرية نتيجة للإيمان بمعتقد سياسى ما:

«. . . وإذ أحاول أن أنسى هواجسى، إزاء ذلك المجهول فى غمرة الاحتواء الحميم من ركاب الصندوق معتقلين وجنودا، أنستهم الرحلة الفوارق، ونبتت رياحين إنسانية دفعتهم جميعا للاهتمام بهذا الصبى الصغير، وهو اهتمام كان يؤلمنى تماما كالتجاهل».

«وفيما كنت أحاول أن أبدو مكتسيا بهدوء غير منفعل، لعله كان مزيجا من الخوف، ومحاولة التماسك، هطل علينا كرذاذ حميم فى حر قائظ موال جميل:

«السجن مش عيب مادام القضا اتحكم

«واتسلطن الندل فى ابن الأصل واتحكم».

. . . .

(٢١)

ونقفز إلى حديث رفعت السعيد عن غربته المبكرة بين زملائه فى رحلة السجن المبكرة وهو الذى قدر له أن يقضى بعض أيامه معهم بينما كان لايزال صبيا يلبس الشورت على عادة أهل ذلك الزمان:

«. . . كانوا كثيرين، ينطلقون فى حماس مشتعل، منقسمين إلى حد التشرذم، كل منهم يعتقد أنه يمتلك مطلق الصح، والآخر مطلق الخطأ، يقولون وبأعلى صوت كلاما كبيرا، وعبارات متخمة بالترفع عن كل مَنْ عداهم، يتبادلون التكاذب، يترفعون، يلوكون ألفاظا صعبة الفهم، ويستريحون كلما كانت ألفاظهم أكثر غموضا، وأكثر استعصاء على الفهم».

(٢٢)

وسرعان ما يستطرد رفعت السعيد ليتحدث عن رؤيته لهؤلاء الزملاء بنضج المفكر الذى خاض التجربة مرة بعد أخرى وأصبح قادرا على تقييم الخطأ والأخطاء فى مراحل النضال اليسارى :

«مارسوا هواية الانقسام حتى الثمالة، وبرروها بألفاظ وأقاويل متقنة، تدافعت ثوريتهم كالسيل، لكنها كانت بلا عمق حقيقى، بعد أن كبرت اكتشفت فيهم التعبير الحقيقى للبرجوازى الصغير، وظللت أتذكر دوما محاولات أمين بك أن يشرح لى، وبتبسيط شديد، رؤيته لهؤلاء الرجال فقال: دى نظرية الأستك، تشده جامد ناحية اليسار وأول ما تسيبه يندفع بسرعة نحو اليمين».

«والغريب أن أغلبهم قد فعلها، فبعد أن أنهكوا حزبهم انقساما ونقدا وانتقادا، وبعد أن صرخوا بأعلى صوت بأعلى الشعارات ثورية، فإنهم وما أن أفرج عنهم حتى أخلوا سبيل أنفسهم من النضال، وعادوا أدراجهم متجنبين أى تلامس مع اليسار».

(٢٣)

ويعود رفعت السعيد إلى ما تسعفه به ذاكرته عن صورته وصورة هؤلاء البرجوازيين الصغيرين فى أولى تجارب اعتقاله، وغربته أيضا، وهو الذى يعبر عن نفسه بأنه كان أقرب ما يكون إلى قطة بلا صاحب :

«لكن أحدا من هؤلاء لم يكلف خاطره بأن يهتم بهذا الصبى الذى ألقت به المقادير بين أرجلهم المتصارعة، كانوا يفتقدون روح الأبوة، أنا لست معهم. . (إذاً) لا مبرر للاهتمام بى، ناسين أننى لم أكن أعرف حتى ذلك الحين. . مع مَنْ أنا؟ بل هل أنا مع أحد أصلا؟ وأننى لم أكن بحاجة إلى أكثر من قدر من الرعاية».

«كنت أسير فى هدوء بين أقدامهم كقطة بلا صاحب، لا يلحظها أحد، ولا أحد يكلف خاطره بأن يشعر بوجودها، أو أن يشعر إزاءها بأية مشاعر».

«حتى الآن لا أعرف كيف مضت بى هذه الأشهر الطويلة، ولا كيف أمضيتها، لا أذكر منها شيئا ذا بال، فقط تساقطت هذه الأيام الواحد تلو الآخر، حتى أفرج عنى».

«لكن هذه الأيام علمتنى الكثير».

وتمضى مع رفعت السعيد إلى زاوية أخرى ينظر من خلالها إلى تجربته الأليمة، وهى تجربة اعتقاله الأولى، وهو يعيد النظر فيما كان يراه من أحداث عابرة اتضح له فيما بعد ما كانت تدل عليه من حقائق التاريخ التى غيبت عنه، وليس لنا أن نعجب من حديث رفعت السعيد عن أن الانتماءات الصهيونية كانت تحظى بالتدليل (!!) على حين أن الانتماءات اليهودية كانت تحظى بالتعذيب مادامت قد ارتبطت بالشيوعية !! وهو يذكر بالاسم الصريح المليونير أوفاديا زعيم الصهيونية فى مصر:

«. . . لكن أشياء مثيرة للدهشة لفتت أنظار هذا الصبى فى فترة اعتقاله الأولى».

«كانت منطقة هايكستب منطقة عسكرية، كل السيارات وكل البشر ممنوعون من الخطو نحوها، فالبلد تحارب إسرائيل والمنطقة عسكرية، سيارة وحيدة كانت تحمل تصريحا دائما للمرور هى سيارة الحاخامخانة اليهودية، وهى سيارة نقل ضخمة تحضر كل يوم إلى عنبر المعتقلين الصهاينة تحمل لهم طعاما طازجا، وملابس، وصحفا، وكل ما يحتاجونه».

«ولاحظت حتى وأنا طفل (ربما فى اللفظ مبالغة أو مفارقة، قد كان على أقل تقدير صبيا أو فتى) هذه المفارقة، ولاحظت أيضا أن التصريح منح فقط لمعتقلى عنبر الصهيونية، بينما كان هناك يهود شيوعيون فى عنابر أخرى ولم يحظوا بهذا الاهتمام».

. . . .

. . . .

«وكان قومندان المعتقل ضابط صعيدى اسمه عبد الحفيظ أبو ستيت، كان يعامل المعتقلين بغلظة، متطاولا عليهم دوما، مذكرا البعض منهم بأنهم يأكلون فى المعتقل أفضل مما يأكلون فى بيوتهم، لكن غلظته هذه كانت تتحول إلى أدب جم إذ يتعامل مع أوفاديا سالم المليونير وزعيم الصهيونيين فى مصر، وشاهدت بنفسى (وأنا أتردد على العيادة فى عنبر ١) كيف كان أوفاديا باشا يجلس أنيقا ومترفعا على مكتب القومندان

متحدثا دوما فى التليفون ليدير أعماله المتشعبة، بينما السيد القومندان يتحاشى الدخول إلى غرفته حتى ينهى الباشا الصهيونى إدارة أعماله».

«وبعد الظهر كان أوفاديا باشا يرتدى بدلة أنيقة ثم يركب مع القومندان سيارته وبلا حراسة ليعود معه قرب المساء، وقيل إنه عقد اتفاقا مع أحد كبار الكبار ليمضى نصف اليوم فى بيته».

. . . .

. . . .

«وفيما بعد، وخلال دراستى لتاريخ هذه الفترة وجدت ما يشير إلى أن أوفاديا سالم هو ومَنْ يمثلهم قد دفعوا لرئيس الوزراء رشوة كبيرة لتسهيل إجراءات ترحيل العديد من اليهود المصريين إلى الخارج تمهيدا لإرسالهم إلى إسرائيل، والحجة التى استخدمها رئيس الوزراء كانت تطهير مصر من اليهود».

(٢٥)

ويتحدث رفعت السعيد بحب وتقدير عن الحيلة الذكية التى لجأ إليها والده لكى يخرجه من السجن كى يؤدى امتحانه، وهو فى سبيله لقص هذه القصة علينا لا يمانع أن يعثر بعض الرذاذ فى وجه حافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى وتاريخه كله:

«. . . كان أشد ما يقلق أبى هو استكمال دراستى، وكان يقلقه أننى فقدت عاما دراسيا فى الاعتقال الأول، وها هو عام آخر يوشك أن يضيع، وعبر شبكة اتصالات تلقى أبى الإشارة بأنه من الممكن الإفراج عنى بسرعة لألحق بامتحان العام الدراسى الحاسم قبل أن يفلت».

«توسط فى الأمر تاجر شديد الثراء، وواسع الاتصالات كان صديقا حميما لأبى اسمه فهمى سيد أحمد، وتوصل إلى تاجر فى الحمزاوى اشتهر بأنه صديق حميم لحافظ باشا عفيفى رئيس الديوان الملكى، وكان حافظ باشا يحرص على أن يمر كل يوم على محل التاجر ويتوقف بسيارة القصر الملكى ليجلس مع الرجل بضع دقائق، لعلها كافية ليعلن للكافة صدق ما يقوله الرجل، وهو أنه حلقة الاتصال، ومنظم الوساطات لدى حافظ باشا».

«أبى وصديقه شدا رحالهما إلى القاهرة، فالحمزاوى، فالتاجر، تكلما كتجار محترفين، وعقدت الصفقة أن يفرج عنى خلال أيام مقابل خمسمائة جنيه (وهو مبلغ كبير بمعايير هذا الزمان)، وبالفعل وبعد يومين أتت سيارة من الشرطة ومعها قرار الإفراج عنى».

«كنا فى مايو ولا يتبقى على امتحان التوجيهية (الثانوية العامة) سوى أربعة أسابيع، ودخلت التحدى مع نفسى، ومع أسرتى، ونجحت».

«دفع أبى الخمسمائة جنيه، وبعدها بأسابيع كانت ثورة يوليو، وكان الإفراج عن جميع المعتقلين».

(٢٦)

ونأتى إلى ما ليس منه بد وهو حديث رفعت السعيد عن معاناة الشيوعيين فى سجون عبد الناصر، وفى ظل حكم عبد الناصر، ولا يمكن لنا ولا لغيرنا القول بأن هذا الموضوع يمثل تجنيا على هذه الفترة، ولا على وقائعها، لكنه على النقيض من ذلك يقدم أحكام مفكر ذكى، وسياسى ناضج على أحداث قدر له أن يصطلى بنارها.

وعلى سبيل المثال فإن رفعت السعيد لا يبخل علينا فى حديثه عن فترة هروبه بتمرير كثير من أحكامه على فترة بداية الستينيات من حكم الرئيس جمال عبد الناصر، وما حفلت به من عداء لليسار واليساريين، وهو عداء مركب انتهى إلى ما صوره رفعت السعيد على أنه انحطاط سياسى وخلقى:

«... أجهزة الإعلام كانت تخوض ضدنا معركة وحشية ومتوحشة، خلطت فيها بين معركتها معنا، ومعركتها مع الرفيق خروتشوف، ومعركتها المريرة مع نظام قاسم فى العراق، وجرى عن عمد خلط الأوراق، وجرى التعامل بانحطاط سياسى وخلقى لم تعرف له مصر مثيلا، والأمن كان يواصل هجومه الشرس، وضرباته المليئة بحقد لا حدود لكميته».

(٢٧)

ثم ها هو رفعت السعيد فى بداية فصل خاص بعنوان «حوارات مستبدة» يلخص رؤيته لمنظومة التعذيب فى عهد عبد الناصر ويقول:

«. . . أدمن عبد الناصر حوارا مع خصومه، أيا كانوا، عبر أدوات من التعذيب شبه النازى».

«ولقد تجنبت، وسأظل، الحديث عن هذا الحوار، ليس إشفاقا على عبد الناصر وعلى الناصرية، وإنما ترفعا عن شكاية فات أوانها، ويكفى الإشارة إليها كواحد لما يجب أن تتلقنه الناصرية من دروس، ولقد شعرت دوما بعزوف عن تلك الكتابات التى أمعنت فى الوصف المترهل لما حدث، فبدت وكأنها شكايات تتخذ طابع الاستعداء، وأحيانا الاستجداء».

«لكننى لم أزل أمتلك سؤالا محيرا أتمنى لو أن أحدا يمنحنى متعة التعرف على إجابته:

«لماذا كان ذلك كله؟».

«فالبعض يعذب سجناءه بحثا عن معلومات مختزنة فى أعماقهم، أو استكشافا لنوايا، أو توصلا لاعتراف، لكن عبد الناصر كان يعذب وفقط من أجل متعة تعذيب خصمه، وإذلاله، وتنقيته من أية شوائب للقدرة الجسدية أو النفسية أو العقلية على أن يتواصل مع: لا. . التى قالها أو همس بها أو انتوى أن يهمس بها يوما».

«فهل كان عبد الناصر أو الناصرية بحاجة إلى ذلك بينما كان التفاف الناس حولهما كافيا، وموحيا، وقادرا على القيام بهذه التنقية؟».

«إن وجد أحد من خبراء الناصرية أو أنصارها أو خصومها إجابة ممكنة الفهم، سأكون له ممتنا».

. . . .

. . . .

هكذا يركل (ولا نقول يقذف) رفعت السعيد كرة ثقيلة فى الهواء وهو يعرف أن أحدا لن يلتقفها، وهو يكتفى بهذه الركلة من أجل الفوز بهدفه مضحيا بما كان أمامه من فرصة تحقيق الهدف بالكرة نفسها.

(٢٨)

ولا يفرط رفعت السعيد فى الحديث عن التعذيب البدنى، لكنه فى ذكاء شديد يكتفى بعبارات صادقة تصور بشاعة هذا التعذيب، وذلك حيث يقول:

«... فبعد بضع عشرات أو مئات من الضربات ينفصل الجسد من منطقة الإحساس بالألم، ويبدو وكأنك تلاحق حوارا مع جسد آخر، وتكون منفصلا إلى درجة أنك تشفق عليه، لكن الآلام الحقيقية تأتى فيما بعد عندما يحملون هذا الجسد غير القابل للحركة إلى الصندوق».

(٢٩)

وفى فصل تال يتحدث الدكتور رفعت السعيد عن نقيصة من نقائص الناصرية وهى اعتقال النساء فيقول:

«... وطوال فترات السجن تحاشى السجانون اعتقال النساء، لكن محاولة الافتراس الناصرى للشيوعيين فى مطلع عام ١٩٥٩ لم تترك مجالا لأى عقل، أو أى إحساس إنسانى بالإنسانية».

«وهكذا امتلأ سجن القناطر (نساء) بعديد من المعتقلات، بينما سجن القناطر (رجال) ممتلئ أيضا بالسجناء تحت التحقيق».

(٣٠)

ونأتى إلى أعجب وأصعب وأفظع ما فى حديث رفعت السعيد عما يسميه الحوارات الناصرية، رامزا للتعذيب الذى لقيه هو وغيره فى سجون الثورة، وهو حديثه عن الإصابة القاتلة التى خرج بها هو نفسه من إحدى دورات هذا التعذيب، ونحن نراه فى هذا الحديث يحمل نفسه بعض المسئولية عن الإصابة التى لحقت به على هذا النحو الفظيع، ذلك أنه جلب لنفسه هذه القسوة حين سرى عن نفسه بالسخرية من رقة أحد الضباط المكلفين بالتعذيب، ومع أن للقصة جانبا آخر من انتقامه اللاحق من هذا الضابط، إلا أننا نؤجل هذا الجانب حتى نستوعب، فى سرعة، بعض ما حدث فى ذلك اليوم:

«. . . وذات يوم تولى الحراسة ضابط شاب رقيق، دقيق الجسم، يتكلم ويصرخ ويشتم مثل كل الآخرين، ولكن فى نعومة مفرطة، اسمه سامى، وأسميناه فى همساتنا سمسم. سمعنى وأنا أفلت همسة إلى جارى فى الطابور «لو فيه ضرب سأختاره كى يضربنى»، لست أدرى كيف التقطت أذناه الهمسة، لمعت عيناه تلقيت منها رسالة تتوعدنى».

«ثم كان حوار ناصرى غير متوقع، ففى اليوم السابق مباشرة لبدء المحاكمة. تفجر الحوار الشرس، بلا مبرر وبلا مقدمات، وبلا منطق، نفتح الصناديق بعنف لتندفع إليها وحوش تحمل العصى والشوم، وأسياخ من الحديد يضربون بوحشية لا تتوافر حتى لدى الوحوش المتوحشة، وحين يتهاوى الجميع يغلق صندوق ليفتح الآخر».

«وفيما نتساقط فى دهشة مندهشة تحت رنين الركلات والضربات، وصدى الشتائم، اندفع باب صندوقنا وأتى المتوحشون، سمسم فى الطليعة عيناه تبحثان عنى، ثم تناولنى أحد المتحاورين، لكن عينيه تابعتانى حتى نلت ما يكفى ويزيد، ثم تناولنى فى حوار خاص، ألصقنى بالحائط، وتراكمت لكماته فوق صفحة الوجه المفتوحة، لكنها وبرغم قساوتها كانت رقيقة بالمقارنة مع مطارق السجان، يبدو أن لمحة ما أو نظرة ما انفلتت رغم أنفى، ويالها من نظرة غبية أبلغته بمدى استهزائى بضرباته، صاح سمسم: ياشاويش جمعة، وأتى الرد الأجش «أفندم»، فقال: «شوف ابن الكلب ده».

«وتسلم جمعة ابن الكلب، الذى هو أنا، كفه انهمرت على وجهى، دارت الدنيا وأحسست بها تنقلب، لمحت كفه سميكا كمطرقة، أطبقت مطرقة على عنقى، وتحولت الأخرى إلى قبضة تدق فوق عنقى، ولم أشعر بشىء، أفقت بعد ساعات ملقى على بلاط الممر فى انتظار طبيب، الطبيب قال: مفيش حاجة، حاولت أن أقوم، شعرت برقبتى تشتعل بألم لا يمكن لإنسان أن يتوقعه، أو يتخيله، (ولم يزل هذا الألم المؤلم يلازمنى حتى الآن. . كسر فى إحدى الفقرات».

. . . .

. . . .

وفى ذكاء مبرر وصادق ينتقل بنا رفعت السعيد فى الزمان بعيدا إلى ما يصور قسوة وبشاعة ما حدث له حيث يقول:

«. . . نظر طبيب أوروبى فى صورة الأشعة وقال: حادث تصادم عنيف، قلت: ضربة بقبضة يد، قال: مستحيل، إنه تصادم حاد جدا، قبضة الشاويش جمعة لم ترد فى كتب الطب الأوروبية، والحوارات الناصرية خارج إطار تصورهم».

(٣١)

وربما كان من حق القارئ علينا الآن أن نشير إلى الجانب الآخر فى قصة هذا الضابط الغر الذى تسبب لصاحب المذكرات فى هذه العاهة، فقد رمت الأقدار به بعد سنوات ليكون فى متناول يد رفعت السعيد، ولم يجد رفعت السعيد مانعا فى أن يمارس لعبة الانتقام لبعض الوقت، لكنه يوحى لنا أنه بما جبل عليه من إنسانية سرعان ما توقف عن هذه اللعبة.

ولنقرأ هذه الفقرات من قصة حياة رفعت السعيد فى المنصورة بعد خروجه من السجون:

«. . . ومن جديد تبدأ روح المشاغبة القديمة فى استعادة أنفاسها غير متناسية الزمن الجديد، والقبضة الجديدة، واتخذت المشاغبة طابعا فرديا، فواحد من بصاصى رفيقنا (أحمد أركو) أبلغه أن ساكنا جديدا أتى إلى بيتهم هو ضابط فى قوات الأمن منقول من مصلحة السجون، زوجته تشكو لجارتها ما حاق به من ظلم، «قالوا له اضرب ضرب، وبعدين عاقبوه ونقلوه».

«ولم أحتج حتى إلى قليل من الذاكرة، فمن الكلمات الأولى عرفت أنه سامى (سمسم). إنه الوحيد الذى سأظل أذكره دوما، كلما آلمتنى رقبتى، وهى دوما تؤلمنى، وأفسحت لأحمد أركو مساحة من الشغب يبدو أنه بالغ فيها».

«رسائل تهديد إلى بيته، ومكالمات تليفونية تهدده، يخرج من بيته ليجد موتوسيكلا يندفع نحوه بسرعة جنونية ثم يتفاداه فى آخر همسة. . إلخ».

«وتباعدت عن الأمر لعدة أيام، فما كان لى أن أفقد الحذر منسكبا نحو الرفاق القدامى دون حرص».

«وذات صباح استدعانى مكتب المحافظ، دخلت لأجد (سمسم) واقفا، مد يده ليسلم، يدى رفضت بإصرار أن تصافحه رغم إلحاح المحافظ. كان المسكين مفزوعا، ومرتبكا، ويكاد يبكى، ويحكى قصصا خرافية عن محاولة اغتياله، ومحاولة اختطاف ابنه الصغير، والمحافظ يحاول أن يهدئ من مخاوفه، مؤكدا أننا لسنا دعاة عنف، لكن سمسم يستعيد قصة زميله عبد اللطيف رشدى (كان قائد فرقة التعذيب فى ليمان أبى زعبل، ومن هناك وبعد حادث اغتيال شهدى عطية، نقل إلى أمن أسيوط حيث أطلق عليه مجهول دفعة من رشاش.. ليموت)، كل ذلك وأنا مكتف بالصمت. كان الفزع فى عينى سمسم يؤلمنى، وحديثه عن زوجته وابنه يؤلمنى أكثر، وكانت رقبتى هى أيضا تؤلمنى، ولعل موجات من الألم قد تراكمت فى هذه اللحظة بالذات لتذكرنى بكل ما كان، لكننى وبصدق كنت أشعر إزاءه بالرثاء، فالذين حرضوه تخلوا عنه، وتركوه للفزع».

«لاحظ المحافظ أننى لم أنطق، ولم أصافح، ولم أبتسم، فتوجه إلىّ ملحا أن أصافح الرجل الذى علق كل شىء على مصافحة، قد تحمل معنى العفو أو المصالحة».

. . . .

. . . .

وهنا يفكر رفعت السعيد ويصل إلى قرار سريع، ويقرر، وينفذ.

وهو يلخص لنا ما هداه إليه تفكيره وقراره التحليلى فيقول:

«أما المصافحة فلا، وأما الشغب فيجب أن يوقف (هكذا أكدت لنفسى)، ثم اقترحت على المحافظ أن ينقل الضابط، وتساهل المحافظ وقال: اختر أنت.. أنقله إلى أى مركز؟ فقلت وكأنى أملى تعليمات: أحسن ينقل خارج المحافظة، ونقل سمسم خلال أيام، وفقد رفاقنا لذة المشاغبة».

(٣٢)

وإذا كانت غربة السجن وغربة الهروب وغربة العقيدة أمورا مفهومة، فإن رفعت السعيد عانى من غربة أخرى هى غربته مع الجماهير التى تغيرت سلوكياتها تحت حكم

الثورة، وهى غربة قاسية على النفس وعلى العقل أيضا، لأن ما حدث فى نظر الكثيرين كان قاسيا.

والشاهد أن رفعت السعيد تفوق إلى أبعد الحدود فى تقديم صورة المجتمع المصرى فى بداية عام ١٩٥٩ حيث بدأ فترة هروبه واختفائه بعد أن أتم ما حكم به عليه من قبل، وهو السجن لمدة ٥ سنوات، ثم هو لا يكاد يخرج حتى يفاجأ باعتقالات ليلة رأس السنة الشهيرة (١٩٥٨ ـ ١٩٥٩)، وهو بعد كل هذه السنوات التى انقضت يحاول أن يحلل بعض ما أحس به تجاه هذا المجتمع فى ذلك الوقت فيقول:

«والناس جميعا تغيروا، كم تجولت فى الشوارع الخلفية للقاهرة أتطلع إلى عيونهم لأكتشف اختفاء ذلك اللمعان الملهم، والذى كان قادرا أن يحفزنى فى الماضى، ويشعرنى أننى بما أفعل لست غريبا عنهم».

«أين ذهب هذا التألق؟ هل اختفى خوفا من القائد؟ أم يقينا به؟».

«ومع ذلك.. وبرغم ذلك لابد من عمل شىء ما».

(٣٣)

ونعود إلى فترة سابقة نتأمل فيها جهود زعيم صغير قدر له أن يتحمل المسئوليات والتبعات فى فترة باكرة من حياته.

ونحن نقرأ له ما يرويه عن تلك الفترة فنشاركه شعوره بالخوف من المسئولية وحجمها، ذلك أنه حين ألقيت على عاتقه مسئولية رفاقه فى الجامعة فقد كان لابد له من أن يعبر عن دهشته لوضعه حيث أصبح مسئولا عن قيادة رفاق لم يعرفهم من قبل، وليست له بهم علاقة وثيقة كمثل علاقته برفاق المنصورة، ومن العجيب أن هؤلاء كانوا يعيشون حالة من الحذر الغريب، وكان سببها أنهم (!!) هتفوا بحياة الزعيم (جمال عبد الناصر) الذى تقبل ذلك الهتاف بترفع مرير !!:

«... الأمر مختلف تماما، أنا مختلف، أحاول أن أبدو أكثر عقلا، وأقل اندفاعا، والرفاق مختلفون، أنا لا أعرفهم، ولا هم يعرفون مَنْ هذا القادم من الغيب ليرتب، ويأمر، وينهى، ويقرر. علاقتى بهم لا تسمح بهذا، وعلاقتهم أيضا».

«وهم تغيروا، فترة الاسترخاء المريح والهتاف الذى يجرى تقبله من الطرف الآخر بترفع مرير بحياة القائد والزعيم ضخ فى عروقهم خدرا من نوع خاص، وحتى فى أحلك الظروف. كانوا يبحثون عن قدر من الحنان يغلفون به كفاحهم ضد الحكم، وهم مختلفون عن رفاق الزمن القديم».

(٣٤)

ويحدد رفعت السعيد موقفه من الرئيس جمال عبد الناصر على نحو واضح وغير ملتبس، وهو موقف يتخطى النقد، كما يتخطى العداوة!! لكنه يقع أسير الاندهاش من اضطرار عبد الناصر إلى هذه المسالك التى دفع الشعب ثمنها، وهو يقدم هذا الموقف الحاسم فى عداواته من خلال قصة رفيقه على حنيطر، وبكل ما توحى به من الوضع الجديد، وسواء أصحت تفصيلات هذه القصة كلها أم لم تصح، وسواء أكانت حقيقية أم نصف حقيقية، أم لا حقيقية على الإطلاق، فإنها، بلاشك، تصور على نحو دقيق عقيدة رفعت السعيد تجاه عبد الناصر فى ذلك الوقت:

«. . . وشاب صغير عنيد يذكرنى بأيام طفولتى اسمه على حنيطر، قابلته فى سجن جناح، أتى محكوما عليه بعامين بتهمة أنه انطلق إلى الشارع فى ذات يوم تأميم القناة ليوزع منشورا أصدره الحزب ليؤيد قرار التأميم، ويهتف بحياة عبد الناصر بطل تأميم القناة (عبارات المنشور كلها تأييد للحاكم، وإشادة به، لكن توزيع منشور هو بذاته جريمة))».

«وكان على حنيطر يمتلك قصة طريفة سكبها فى أذنى ونحن نتباعد عن ضجيج السجن متجهين بمحاذاة السلك الشائك».

«أبوه وهو مدير مكتب بريد كان صديقا حميما وزميلا قديما لعم عبد الناصر حسين والد الرئيس، وكان عم أحمد حنيطر هو ولى أمر الطالب جمال بالقاهرة عندما كان طالبا فى الكلية الحربية، وكان بيت عم أحمد هو مهبط الفتى جمال كل خميس ليمضى الإجازة الأسبوعية. كان يتحاشى السفر لبيت أبيه حيث زوجة الأب، وكانت الست أم على، ولم يكن قد ولد بعد، تطعم وتأوى، وتغسل ملابس الفتى اليتيم الأم، بحنان

يحاول أن يعوضه عما فقد، ثم تخرج الفتى وأصبح ضابطا، وتباعدت السبل، ثم ظهرت صورته فجأة فى الصحف، ثم أصبح رئيسا».

«حاولت الست أم على أن تقنع عم أحمد حنيطر بأن يتصل بجمال لعله يحصل على ترقية، أو قدر من اهتمام، لكن الرجل عنيد، والولد عاق، لم يهتم بأى اتصال منذ تخرج وأصبح ضابطا، فكيف نطلب منه شيئا وقد أصبح رئيسا».

«ومرت الأيام حتى قبضوا على آخر العنقود، والابن الوحيد فى مسلسل بنات تواصل زمنا، وآخر العنقود مجرد شاب فى السابعة عشرة، وقررت أم على أن تضرب بعناد الأب وترفعه متحججة بقلب الأم، وأن جمال طيب ومش حيقول لأ، وبمعجزة حصلت على رقم من الأرقام التى توصل إلى الرئيس».

«دق قلبها عندما دق رنين التليفون، تصورت أنها ستندفع قائلة: إزيك ياجمال، أخبارك إيه؟ ولكن صوتا خشنا وعدوانيا رد عليها، قالت ببساطة: عايزة الرئيس، قوله مدام عمك أحمد حنيطر، هو عارفنى كويس».

«تنقلت المكالمة من صوت إلى صوت، وفى كل مرة يزداد الصوت خشونة وعدوانية، وهى تكرر وبلاملل ذات العبارة، أخيرا جاءها الرد: إذا فيه حاجة ابعتى طلبا مكتوبا على مكتب الرئيس. انهارت بجوار التليفون، وأقسم عم أحمد بالطلاق ألا يرسل أى طلب».

(٣٥)

ولا يقف حديث رفعت السعيد عن اغترابه عند حد، بل إن هذا الحديث يسيطر على كل رواياته، وعلى كل رؤاه، حتى إنه حين يذهب إلى سجن ذهب إليه من قبل، فإنه يحس بالغربة لأن السجن قد تغير، وها هو يتحدث عن سجن الواحات الذى قدر له أن يذهب إليه مرة أخرى فإذا به يجده شيئا آخر غير السجن السابق الذى عاش فيه، وإذا هو حتى فى السجن يحس بغربة من نوع عجيب يسمح للرومانسية أن تقارن بين سجن وسجن، وبين السجن ونفسه فى وقت غير الوقت، وانظر إليه وهو يقول:

«. . . لكنه ليس ذات المكان الرومانسى القديم جناح، إنه موقع أكثر عزلة، وهو أيضا بلا رومانسية».

«فهنا أسوار سجن حقيقى، وزنازين من حجر وأبواب وقضبان، والأهم من ذلك أن الماء يأتيه عبر مواسير عادية، وليس عبر هذا النبع أبدى الإغراء بالتأمل، وأن الزنازين أحلت محل الخيام المفتوحة دوما حتى فى أمسيات الصحراء الرائعة، وسجن المحاريق نموذج خاص، أسوار لكنها مفتوحة، مرة أخرى تسود نظرية «لا مهرب»، وفتحتها تقتادك إلى مزرعة جميلة بذلنا فيها أنهارا من عرقنا وجهدنا حتى أصبحت خضراء، ترويها بئر صغيرة لكنها تكفى».

«كان اختراع الزراعة حلا حكوميا سعيدا، فهو يرفع عنها عبء إطعام سجنائها، وهو يمنح السجناء الشيوعيين إمكانية أن يسكبوا آخر قطرات جهدهم من أجل التفوق على الصحراء. أربعون فدانا تم استصلاحها ظلت ولفترة طويلة، وحتى بعد إغلاق السجن، نموذجا يتفرج عليه زوار الوادى الجديد، وظلت لأمد طويل تسمى مزرعة الشيوعيين. كان سجناء الإخوان موجودين أيضا فى عنابر مستقلة».

«وما أن تودعنا الشمس متجهة إلى الغروب حتى نعود طوعيا، وكأن خيوطها إذ تنحدر تلقى شباكها علينا، وتجمعنا كل إلى زنزانته، وغلق الأبواب كأى سجن، وإلى الصباح».

. . . .

. . . .

«وكان الزمن فى سجن المحاريق غريبا هو أيضا، عبد الناصر فى أوج مجده السياسى، يصعد ويصعد، وأطروحاته تصعد معه، والصحف التى أصبحت متاحة، وإن متأخرة لأسبوع أو أكثر، تحمل أرقاما ومعلومات ومقالات وتحقيقات عن متغيرات تقلب الواقع المصرى الذى عرفناه، وعايشناه، وأقمنا كل بنائنا الفكرى على أساسه».

«الصحف تتحدث الآن وبحماس عن التأميمات، والاشتراكية والاتحاد السوفييتى الصديق، والزراعة التعاونية، والقطاع العام، ومشاركة العمال فى الأرباح والإدارة، والزيادة المتسارعة للإنتاج، وحقوق المرأة العاملة، وهى تصرخ بالعداء لأمريكا والإمبريالية والصهيونية. . و. . و. . كل ما كنا نقول به، وأحيانا أكثر».

(٣٦)

ثم يتحدث رفعت السعيد عما أحسه أو اكتشفه من خطورة تأثير الدعايات الناصرية على أيديولوجية «حدتو»:

«. . . المهم بدأت تتكون فى عمق عقل حدتو، وفى وجدانها، حالة من التصديق لكل ما يقال، بل وإقامة أبنية فكرية عالية الطموح على تحليلات مستمدة، أو مبنية وفقط على ما يتدفق عبر هذا الثقب الإعلامى، ناسية أن الواقع الواقعى هو شىء آخر تماما، وأن الجهاز الإدارى الناصرى قد نجح فيما لم ندركه إلا بعد الإفراج عنا بزمن ليس بالقصير، وهو ابتداع أرقام، وإحصاءات ومعطيات، لا تتطابق مع الواقع، وأن الواقع الواقعى كان مختلفا فى كثير من جوانبه ونتائجه عن الخطط والمشروعات والمقالات والخطب التى تتربع على مساحات غير محدودة من الصحف الحكومية، وهى فى هذا الزمان.. الصحف الوحيدة».

. . . .

. . . .

«وعلى النقيض كانت المجموعة الأخرى التى كانت تتسمى (الحزب الشيوعى المصرى) ترفض الثقب الإعلامى وكل ما يأتى به، لا تصدقه، ولا أى حرف منه، بل تكذبه تكذيبا غير علمى وغير متوافق مع الواقع، ومن عمق هذا التكذيب الذى استمد بعضه من عدم الرغبة فى إعطاء الخصم (حدتو) أية ميزة تاريخية تؤكد صحة موقفه القديم، أو أية مقدرة استشرافية له، ومن ثم تدين الموقف النقيض الذى هو موقفه».

(٣٧)

وحين يصف رفعت السعيد انتهاء سجنه ورفضه تأييد عبد الناصر وبقائه، من ثم، فى الاعتقال ثم خروجه (ضمن صفقة الإفراج عن الشيوعيين) فإنه يصر على أن يصف خروجه بأنه عودة إلى الغربة:

«ويمتد حبل الأيام فينسج أشهرا وسنين خمسا، وتنتهى فترة السجن، لكن السجناء فى هذه الأيام لا يفرج عنهم».

«فى أشهر سابقة كانوا يرحلون إلى القاهرة حيث يطلب إليهم كتابة أسطر يستنكرون فيها الشيوعية، ويؤيدون الرئيس عبد الناصر، ورفض الجميع، وبعدها أراحوا أنفسهم من عناء الترحيل، وعناء نقاش لا جدوى منه، وتعدلت الخطة، مَنْ يريد أن يكتب، يفعل ذلك عند مأمور السجن، ولم يفعل أحد، وكان نصيبى، لأننى لم أفعلها، بدلة معتقل بيضاء، بدلا من بدلة سجين زرقاء، وفقط».

. . . .

. . . .

«ثم تقع تطورات سياسية، متلاحقة».

«عبد الناصر يصرح لأريك رولو (جريدة الموند) بأنه ينوى الإفراج عن الشيوعيين».

«ثم بدأت حملة إفراج واسعة، ثم أصبحت شاملة».

. . . .

. . . .

«وأعود مرة أخرى إلى الاغتراب».

(٣٨)

وربما نعجب لهذه الغربة التى يصورها رفعت السعيد أو يشير إليها فى ثنايا حديثه عن حياته فيما بعد الإفراج عنه، لكننا سرعان ما نجد الإجابة على عجبنا فيما يرويه عن المناخ الذى عاش فيه فى مدينته المنصورة حين عاد إليها وحاول أن يعيش الحياة التى عاشها من قبل فى بيته ومع أسرته:

«. . . فالأعين تتوجه إلىّ بعشرات من الأسئلة المندهشة، فيم كان ذلك كله؟ غبت أحد عشر عاما كاملة، ذهبت وأنت تقنع الناس، أو تحاول، بأن عبد الناصر ديكتاتور ومعاد للديمقراطية، وعدت بعد كل هذه الرحلة، وأنت تمتدح عبد الناصر وتؤيده، ففيم كان ذلك كله؟».

. . . .

«. . . ويوجعك أكثر أن إجاباتك تتعثر فلا تجد سبيلا لا لإقناع، أو حتى شبه إقناع».

«فإن أفضت فى الحديث عن السجن خنقت الحديث عن تأييدك للرئيس، وإن أفسحت للتأييد مجالا، ففيم كان كل ذلك؟».

(٣٩)

على أن غربة رفعت السعيد فيما بعد الاعتقال لا تتوقف عند مشاعره الحائرة فى الإجابة عن أسئلة الناس عن حياته هو، وإنما هى تتعدى هذا إلى موقفه هو نفسه من تأمله لحياة الناس من حوله، وقد أصبحت هذه الحياة تمضى على غير ما هو منطقى أو ما يسميه رفعت السعيد «النفاق الأيديولوجى المفروض عليهم»:

«. . . والمعركة فى هذه المدينة التجارية هى أن تخفى ثروتك، وتسرى شائعات غريبة عن المخابرات التى تتجسس لدى الجزارين «فلان يشترى كم كيلو من اللحم أسبوعيا»، ربما حدث ذلك مرة، لكنه انتشر بسرعة البرق بحيث اعتاد أبى وأصدقاؤه على أن يشتروا اللحم من أكثر من جزار، ومعركة إخفاء الثروة كانت أكبر هموم تجار المنصورة، ومن هذه النافذة كان عداؤهم لعبد الناصر يطل فى كل لحظة، وكانت نظرات أقاربى تحتوى قدرا من الرفض لهذا الفتى الذى عارض عندما كانوا يؤيدون، ويؤيد عندما أصبحوا يعارضون».

«وبعد يوم أو يومين أراد صاحب هذه الضيعة المسماة بالدقهلية أن يتعرف على الوافدين الجدد، مدير مكتب المحافظ اتصل تليفونيا محددا موعدا. . . «وهات زملاءك معاك».

«وذهبنا. . مجموعة من المفرج عنهم، المحافظ ضابط (إسماعيل فريد) لم يكف عن الحديث عن دوره البارز فى الثورة، وتصميمه على حمايتها، وسكرتير عام المحافظة ضابط (عقيل مظهر) أبدى اشمئزازه عندما تحدثت (فى محاولة لتغيير مجرى الحديث) عن والده وأفكاره المتحررة (إسماعيل مظهر)، واكتفى بأن هز رأسه بحركة لا تعرف منها إن كان موافقا أم محتجا، وعيناه مضبوطتان على اتجاه موجة عينى المحافظ».

(٤٠)

ولا يبخل علينا رفعت السعيد بما اكتشفته بصيرته من حقيقة موقف ثورة ٢٣ يوليو من

التنظيمات الشيوعية، وهو الموقف الذى لخصته عبارات رجل للمخابرات عبد الفتاح أبو الفضل التى ذيل بها قرار منع نشر قرار حل التنظيم الشيوعى، ويعبر رفعت السعيد عن هذا بالسخرية من أن الثورة استكثرت على الشيوعيين أن تنشر لهم قرار حل تنظيمهم:

«. . . وذات يوم تلقيت دعوة ملحة لحضور كونفرنس عاجل لحدتو، سألت الداعى عن الداعى للاجتماع فقال هامسا: استصدار قرار بحل التنظيم».

«ولست أدرى أية حكمة حكيمة هبطت علىّ فرفضت الحضور ورفضت إرسال تأييد للقرار من بعيد، فإذا كان ثمة قرار مسبق بالحل، فلا مبرر لحضورى وتوقيعى عليه».

«ولكى أكون منصفا فأنا لا أزعم أننى كنت ضد الحل، بل كان الحل يتجسد أمام عينى كحالة تفرض نفسها، لكننى ربما بحس من دراسة التاريخ دراسة متأنية، أردت ألا يذكر اسمى ضمن مَنْ اتخذوا القرار».

«وهكذا انفرط العقد».

«تبددت آمال تعلقنا بها، وعلقنا عليها كل حياتنا، وكل مستقبلنا، وعلقنا الكثيرين غيرنا بها، فتحملنا عنهم وزر ما فعلنا بهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر».

«وفى المساء عندما وصل الخبر للجريدة، صدر قرار بمنع النشر (حتى نشر قرار الحل استكثروه عليهم)، وأتى بلاغ عاجل من مكتب عبد الفتاح أبو الفضل (نائب مدير المخابرات السابق ومسئول الرقابة فى الاتحاد الاشتراكى) ليحذر تحت خاتم «سرى جدا» من الاطمئنان لهؤلاء الشيوعيين، فهم وإن حلوا التنظيم فلازالوا يتمسكون بما هو أخطر وهو الفكر الماركسى».

«عرضت الخطاب على خالد محيى الدين رئيس مجلس الإدارة، فهو موجه له بصفته عضوا فى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى (كنت قد أصبحت مديرا لمكتبه)، قرأ. . نظر إلىّ. . نظرت إليه. . ولم ينطق أحد منا».

(٤١)

ومع هذا فإن رفعت السعيد يوحى إلينا بعناد السياسى القديم، والأيديولوجى

المتمرس أنه فى قرارة نفسه لم يشأ أن يستسلم لهذا القرار، وهو يعبر عن صدمته فى صدور مثل هذا القرار على نحو ما يوحى بجسامة الخسارة التى تمثلت فى هذا الموقف:

«. . . فى سريرى فى البنسيون أحسست بقطعة حجر تسحق قلبى، وبركام يتهاوى فوق رأسى، وانسابت دموع صامتة موجعة، لعلها أرادت أن تؤكد لى أن قرار الحل ليس نهاية المطاف إلا لمن أراد ذلك، وإن بالإمكان تجاوزه. . وتخطيه. . وهو ما كان فيما بعد».

. . . .

. . . .

وفيما بعد يزيد رفعت السعيد هذه الفكرة وضوحا بعبارات حاسمة يريد أن يبتعد بها عن جوهر المرض، وإن لم ينجح فى أن يبتعد بها عن التشخيص الصائب:

«وإذا تحدثت طويلا عن معاناة فردية فى مواجهة الناس، سأفسح أسطرا لمعاناة من نوع آخر، خرجنا لنجد عبد الناصر فى قمة مجده (إبريل ١٩٦٤)، الجماهير التى اعتدنا التحدث عنها أو باسمها تلتف حوله فى حالة من الوجد الصافى المتوهج، والخصوم الذين حاربناهم يرفضونه، والبرنامج الذى أعددناه يتحقق الكثير منه (لعل هذا التحقق كان شكليا، فما أن تتلامس مع مكوناته حتى تكتشف خواء وفسادا)، وعبد الناصر كأنه يشكو حقا، أو كأنه يوجه الحديث الشاكى نحونا، يتأوه فى كثير من أحاديثه «أنا أبنى اشتراكية بدون اشتراكيين»، وتلهب هذه العبارة خيال الكثيرين منا، فها هى الاشتراكية تريد أن تبنى نفسها على أرض الوطن، فقط هى بحاجة إلينا، لكنك ما أن تضع قدمك عندهم حتى تضيع فى متاهات من التسلط العلوى، والعمل الشكلى، والعيون المتلصصة على كل حركة (وهو ما كان من الصعب اكتشافه عند البدء)».

(٤٢)

ويصل رفعت السعيد فى تصوير تطور علاقة اليسار بعبد الناصر إلى رواية ما حدث فى مرحلة تأسيس التنظيم الطليعى، ومفاوضة اليساريين القدامى على الانضمام إليه، وهو يروى ما يرويه من شرفة التاريخ فيبدو وقد ارتدى مسوح الحكمة التى لم يقدر لليسار نفسه أن يرتديها فى ذلك الوقت.

ومن العجيب أن نقرأ هذا الذى يرويه رفعت السعيد فى سلاسة فنحس به صادقا من دون أن يتنبه إلى حقيقة أن نظام عبد الناصر قد وظف عملية تكوين أو تشكيل التنظيم الطليعى نفسها لتكون مصيدة جديدة وحقيقية للشيوعيين، أو بمعنى علمى أدق ليكون مرشحا أو فلترا يضمن فرز الشيوعيين وقدرتهم على الاندماج فى كيان بيروقراطى شاب أو فتى من طراز التنظيم الطليعى على صورته التى نشأ بها.

ونحن نقرأ ما يرويه رفعت السعيد فنراه يكاد يصرح بهذه الفكرة، لكنه يفعل ذلك على استحياء، وربما كان هو استحياء الإنسان المفكر الذى وجد نفسه يقع فى المصيدة (أو مر فى المرشح) على الرغم مما كان يتمتع به من بصيرة قادرة على أن تجنبه هذا الوقوع:

«. . . وبعد أسبوعين تقريبا زارنى رفيق، حكى ما يجرى فى القاهرة، البعض اندفع إلى مصيدة التنظيم الطليعى (تنظيم سرى أقامه عبد الناصر)، وقبل شرطا أساسيا هو أن يقطع علاقته بحدتو، والبعض يتطلع إلى الطليعى، والبعض ينتظر، كانت خطة القيادة واضحة، فقد قالت منذ زمان السجن بوجود مجموعة اشتراكية فى قمة السلطة، ومن ثم فلا بأس من السعى للتوحد معها، وكان المنضمون للطليعى مجرد طليعة، تستكشف الطريق تمهيدا لدخول الجميع. (فى البداية انساق نحو الطليعى زكى مراد، ومحمد شطا، وشريف حتاتة. . وآخرون ولم يكن فى الأمر ضعفا ولا عيبا، وكان اتساقا مع موقف عام، لكن حدتو هى التى فقدت اتساقها، فلها ساق داخل النظام وساق خارجه، وما كان لأمر كهذا أن يستقيم طويلا».

«والوضع أصبح معقدا، نصفك عند الطرف الآخر. نصفك يبقى معك، يحاول أن يفرض وجوده، أو يفترضه، لكن عقله معلق بالآخر، يسعى كى يتعلق بأذياله، وحتى وإن أراد الاستمرار مستقلا فإنه لا يجد ما يقوله سوى أنه يؤيد الرئيس».

(٤٣)

ونأتى إلى أروع فقرة فى هذه المذكرات، بل فى كل المذكرات التى تحدثت عن معاناة اليسار المصرى، وهى فقرة تنبئ عن جوهر الإيمان الحقيقى المجرد من رطانة

النظريات، والمدرك لحقائق الأمور على وجهها الصحيح، ولست أريد أن أحرم القارئ من لذة الوصول إلى الحقيقة على نحو ما وصل إليها رفعت السعيد نفسه حين يروى تفصيلات طريفة وذكية عن اجتماع محلى هو اجتماع المنطقة الأولى فى الدقهلية الذى رأسه هو نفسه، وإذا بالحكمة تأتى كعادتها على لسان فلاح ذكى بينما المنظرون من أمثال صاحب المذكرات غائبون عن الحكمة !!:

. . . .

. . . .

«وأتذكر اجتماع المنطقة الأولى».

«قررت بناء على طلب من المركز دعوة لجنة منطقة الدقهلية إلى اجتماع، وكان واسعا، حوالى الثلاثين من الكوادر بعضهم سايرنا فى رحلة السجن، والبعض أفلت، وبقى يحاول أن ينبت ذات الأفكار فى تربة تغير مذاقها، وتغيرت قوانين الفعل فيها».

«لكن الجميع كان منفعلا بفعل اللحظة الجميلة، أن نلتقى مرة أخرى على ذات المسار، كرئيس للاجتماع تأملت هذه المجموعة وطاف بخاطرى خيال باهت، بهؤلاء يمكننا أن نبدأ وأن نهز الدنيا (أى دنيا؟ وفى أى اتجاه تهزها؟ ظل هذا السؤال شوكة فى حلقى)، تحدث الجميع بانفعال، والبعض بافتعال ومبالغة؟(فى بعض الأحيان تكون المبالغة علاجا للتردد أو الخوف). العائدون من السجن قدموا تصوراتهم، وتحدثوا عن رفاق وأرقام لم تزل تنتظر مياه الرى القيادية لتعود فتزهر وتنشط، والذين نجوا من السجن تحدثوا عما فعلوا، وعمن بقى، وكيف بقى، وفى خضم الإحساس المزدهر بأننا كثيرون لم نزل، ومستعدون لم نزل، كى نقول ونفعل، لاحظت أن الأكبر سنا فينا لم ينطق منذ تراكمنا مع بعضنا البعض. (عم الحاج سيد، فلاح من إحدى قرى نبروه، من قادة انتفاضة الفلاحين فى بهوت ١٩٥٠، نال أرضا من الإصلاح وانهمك فى مسار العمل التعاونى ليصبح واحدا من قادة التعاون الزراعى)، عم سيد لم ينطق، واستدعيته للحديث».

«كان باردا على غير العادة، تركته زمان وهو يتقد حماسا، إخلاصه بقى كما هو، لكنه اكتسى بمذاق خاص جدا، بهدوء سأل: إيه ده اللى إحنا عاملينه؟».

«ـ ده اجتماع».

«ـ اجتماع إيه ؟».

«ـ لجنة المنطقة».

«ـ منطقة إيه ؟».

«ـ منطقة الحزب الشيوعى المصرى «حدتو» بالدقهلية».

«ـ ليه ؟».

«ـ عشان نعيد تنظيم أنفسنا».

«ـ ليه ؟».

«واستمرت أسئلته الموجزة التى تشبه كل منها وخزة إبرة فى مكان موجع، لكنه كان يختزن قدرا كافيا من الحكمة ومن الحب لنا دفعه إلى تقسيط الوخزات قطرة قطرة».

«استمرت.. ليه؟ وأنا أجيب بحرص مَنْ يعرف طبيعة المنزلق».

«ـ ليه ؟».

«ـ لنواصل عملنا الحزبى».

«ـ ليه ؟».

«ـ لنحقق أهدافنا».

«ـ ليه ؟».

«آه.. وقع المحظور.. حاصرنى الماكر بسؤاله الساذج والمتكرر حتى قلت: لنؤيد ونحمى ونواصل منجزات عبد الناصر».

«وابتسم الفلاح الهادئ الماكر، وسأل: ودى تساوى إننا نقعد فى جلسة سرية ولو مسكونا نتسجن كل واحد عشر سنين، عايزين نؤيد، نؤيد علنا، إنما سرى لما نكون حنعارض، وبدأ عم سيد يعدد لنا أبوابا للمعارضة ضد الفساد المتراكم، والتحكم،

وافتقاد الديمقراطية، كان مغروسا حتى عنقه فى الاتحاد الاشتراكى (واحد من قادة المحافظة)، ومغروسا بذات المساحة فى التنظيم التعاونى، ويرى ويعانى كل يوم ما لا نلاحظه نحن من على السطح، أو على صفحات الصحف الخاضعة لعملية تنظيف تجريها رقابة صارمة ومستديمة».

«أحسست أن الرجل يوشك أن يغير مسار الاجتماع بعد أن سكب أمواجا من ماء بارد على حماسنا السابق، وجعلنى شخصيا بحاجة إلى إعادة تفكير فى كل ما نفعل، وبصعوبة نجحت فى إنهاء الاجتماع بأقل قدر من الارتباك، وفيما الرفاق ينصرفون أطبقت أصابع عم سيد على ذراعى، انتزعنى من حفل التوديع المليء بالسلامات ليهمس فى أذنى:

«عايز تتسجن كام سنة كمان علشان تتعلم؟ لسه برضه طايش؟ إذا نفسك تؤيد عبد الناصر روح الاتحاد الاشتراكى، وإذا عايز تعمل «تنظيم سرى حقيقى» يبقى بلاش المظاهرة دى.. كفاية ثلاثة أو أربعة»، ثم قال: «فكر.. وأنا جاهز».

«فكر» أية دعوة هذه؟ سهلة هذه الكلمة، ولكن الأصعب أن تمرق بها عبر تعقيدات الوضع الناصرى، وعبر مواقفنا المعقدة منه».

. . . .

. . . .

على هذا النحو ينبئنا رفعت السعيد بنعومة شديدة أن العمل الوطنى السرى كان قد انتهى، وأن الفضل فى ذلك كان لا للتعذيب وحده، وإنما كان فى المقام الأول لتعقيدات الوضع الناصرى، ومواقف الشيوعيين المعقدة منه !!

(٤٤)

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن رفعت السعيد الذى قضى سنوات السجن فى تأمل يكشف لنا عما قدر له أن يكونه من فكرة كاملة عن الفساد الذى تخلق على يد الثورة وقراراتها.

بل إن الدكتور رفعت السعيد يتحدث عما أدركه هو نفسه فى مرحلة مبكرة من

الملامح الصارخة المنبئة عن الفساد الإدارى فى ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وهو يصور بالقصة التى يرويها جبلا ضخما وكبيرا من الفساد الذى نشأ وترعرع فى عهد الثورة بفضل تدخل الدولة غير المبرر فيما لا تملكه، وفيما لا تجيده، وهو ما حدث على سبيل المثال فى أراضى الإصلاح الزراعى التى تأممت وأصبحت فور تأميمها مرتعا خصبا للفساد، وربما أن الجديد فيما يرويه رفعت السعيد هو هذا الفساد الثورى!! إذ أن الخلفية الذهنية فى وجداننا لا تكاد تتصور (وإن لم تنكر) سرعة نشوء الفساد وازدهاره على هذا النحو الذى حدث منذ بداية عهد الثورة.

ومن الطريف أن رفعت السعيد لا يجد حرجا فى أن يذكر قصة الفساد الذى شهده بالأسماء الصريحة !!

ومن الجدير بالذكر أن رفعت السعيد كان من الذكاء بحيث لخص بهذا الموقف طبيعة الصراع الكامن بين طبقة رجال الأعمال الشرفاء الحقيقيين من طراز والده من ناحية، وبين نظام عبد الناصر من ناحية أخرى:

. . . .

. . . .

«. . . عدت ذات يوم فى نهاية عام ١٩٥٢ إلى المنصورة فى إجازة (كنت قد التحقت بكلية حقوق جامعة إبراهيم)، وفيما أجلس إلى أبى فى مكتبه بالورشة نتجاذب الحديث، دخل شخصان، رحب أبى بأحدهما كصديق قديم، وبالآخر فى تحفظ مَنْ يتقابل لأول مرة».

«القديم منهما هو أحد نظار زراعة البدراوى عاشور، وكان أبى وطوال سنوات عديدة متعهدا بإصلاح كل ماكينات ضرب الأرز، ومطاحن وجرارات دائرة البدراوى باشا».

«وكان الإصلاح الزراعى قد أتى، استولى على الأرض وعلى كثير من الماكينات، ومنها مطحن كبير، بعد التحيات والسلامات قال الصديق القديم: «كرنك ماكينة الطحين ماركة (كروسلى) إللى عندنا يساوى كام»، قال الحاج: «ده إذا لقيتوه»،

فالطراز قديم، والكرنك لا يمكن تصنيعه فى مصر، وقد يحتاج الأمر لاستيراده من الخارج».

«فكر أبى قليلا وقال: «هناك ماكينة من ذات الطراز فى المنيا وأصحابها عايزين يبيعوها، ممكن تشتروها وتاخدوا منها الكرنك».

«وبعد محاورات ماكرة أفصح الرجل عن الحقيقة، الكرنك سليم لكن البيه مفتش الإصلاح الزراعى الجالس صامتا طوال الوقت يقترح عمل محضر إنه كسر، ثم فاتورة من الحاج بثمن باهظ جدا، ثم يقسم الثمن على ثلاثة».

«صرخ أبى بشتائم عالية وطرد الاثنين، وفى ثورة الغضب لم نلحظ أن الاثنين انسحبا وانسحب خلفهما صديق قديم لأبى، كان يجلس معنا، ويمتلك ورشة صغيرة جدا فى شارع سيدى عبد القادر اسمه الأسطى محمود شحاتة».

«وما أن اختفى الضيوف حتى انحنى أبى نحوى قائلا: آدى ياسيدى الثورة بتاعتك».

«كان أبى مع الإصلاح الزراعى، لكن هذا الفساد المبكر أفزعه، وأفزعه أن يلتصق الفساد بالشىء الجميل «الإصلاح الزراعى».

«وتمضى الأيام، فقد أبى أهم زبائنه لأنه رفض اللعبة الجديدة مع أكثر من زبون، وتمددت ورشة الأسطى محمود لتتحول إلى منجم ذهب، وتوالت العمارات التى يمتلكها، وظهرت سيارة بويك أمام ورشته الجديدة».

«ويزداد أبى عداء لعبد الناصر».

«ليس غيرة من الأسطى محمود، فقد ظل دوما قادرا على أن يفعل مثله وأكثر، وإنما رفضا لما توالى من فساد، وتعبت كثيرا، دون جدوى، فى مناقشات امتدت حتى آخر الأيام كى أفرق بين «الإصلاح الزراعى» كعدل اجتماعى ضرورى، وبين الفساد الذى ظهر وتكاثر فأفسد مذاق كل شىء».

«لكن أبى ظل رافضا ومؤكدا أن كلهم حرامية، ورغم إصرارى أن بعضا من

الديمقراطية يمكنه أن يقلل من الفساد، لم يقتنع أبى، وظل على عداء لعبد الناصر إلى درجة أنه كان لديه خادم فى المنزل اسمه جمال، فكان يناديه «ياواد ياعبد الناصر يالبن . . .»، واعتاد منه الخادم هذه المناداة الودودة، وحتى رحل أبى كنا دوما على خلاف حول هذا الموضوع، لكن تعاظم ثراء الأسطى محمود كان دوما يفرض حالة من التآكل على ما أطرح من حججه».

(٤٥)

ويقدم رفعت السعيد معلومات فى غاية الأهمية عن حقيقة موقف طلاب الجامعة فى العام الأول للثورة، الذى كان بمثابة عام حاسم فى تاريخ الحركة الوطنية والطلابية على حد سواء، وهو حريص على أن يصور توزع توجهات زملائه ما بين الشيوعيين والإخوان المسلمين، وهو ينجح فى أن يصور الشيوعيين قادرين على الوجود إلى جوار الإخوان، حتى مع دعم الثورة الواضح للإخوان وتحالفها معهم، وهو يستشهد على صواب ما يرويه بما يذكر أنه حوار دار بين جمال عبد الناصر وخالد محيى الدين :

. . . .

. . . .

«وتظل ذكريات هذا العام المليء بالحيوية عالقة بالذاكرة».

«ذات يوم أتى رفيق فى عجلة من أمره يحمل رسالة من مسئول قسم جامعة فؤاد (القاهرة) علموا بالصدفة أن عبد الناصر سيزور كلية الحقوق، وأن الإخوان قد استعدوا بحشود ضخمة معلنين تأييدهم له، وأنهم سيستعدون لهذه الزيارة بتمشيط جامعة فؤاد من كل خصومهم، جمعنا حوالى مائة طالب من أعضائنا وأعضاء الجبهة لنصل إلى حقوق القاهرة قرب الظهر، فنجد رفاقنا وأصدقاءهم وقد تعرضوا لمذبحة حقيقية، ونجد حسن دوح قائد الطلاب الإخوانيين ممسكا بالميكروفون فى حشد يضم آلاف الطلاب، وعبد الناصر واقف إلى جواره هو وبعض أعضاء مجلس الثورة».

«كان حسن دوح يصرخ متحديا : «يارجل الثورة أعطنا حرية فى العمل، وساعتها سنقول للشيوعية الملحدة اخرجى من بلادنا، ونصيح فيهم : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ليحطمنكم سليمان وجنوده».

«توقفنا نستمع، فما من مجال لفعل أو شبه فعل، وانتهت المظاهرة المصنوعة وتفرق الجميع إلا نحن، بينما دخل قادة الثورة إلى مكتب د. مورو رئيس الجامعة، بقوا هناك بعض الوقت يكفى كى نستجمع قوانا، ونستجمع أنفاسنا، وبينما عبد الناصر والضباط يخرجون ليركبوا سياراتهم، وجدونا نسد عليهم الطريق هاتفين، مطالبين بالديمقراطية، وبالدستور، وبكل نقاط الخلاف بيننا وبين حركة الجيش».

«ارتبك عبد الناصر، توقف، تأملنا مليا، لعله تساءل من أين أتوا بعد كل ما كان؟ لم نقف طويلا، فقط أسمعناه صوتنا ورأينا ثم تنحينا (بعد زمن طويل علمت أن خالد محيى الدين كان بين ضباط القيادة الحاضرين، وأنه ركب السيارة مع عبد الناصر الذى التفت إليه قائلا: برضه العيال بتوعكم جدعان)، كان عبد الناصر قد اتفق مع الإخوان ليتظاهر بقوتهم، وليحرج مركز خالد محيى الدين، فجاءت هتافاتنا، غير المخططة، سندا لخالد لم يتوقعه جمال».

(٤٦)

ويمضى رفعت السعيد فى تصويره لأحداث ذلك العام وما حفل به من نشاطه هو وإخوانه الشيوعيين، وهو لا ينسى فى وسط هذا الحديث أن يثأر لنفسه وللشيوعيين وللطلاب من الدكتور سليمان الطماوى (وهو يذكره بالاسم الصريح) الذى كان يلمح للثورة ورجالها بضرورة اتخاذ قرار قاس ضد هؤلاء الطلبة، ولا مانع عنده من أن يصل إلى الإعدام:

. . . .

. . . .

«وكان عملنا فى الكلية نشيطا، بل ومتفجرا، وحتى بعد أن قبض علىّ ظل متماسكا، ونفذ رفاقنا اعتصاما شهيرا فى الكلية خلال أحداث مارس ١٩٥٤، وانتهى بالطبع بحملة اعتقالات واسعة، إلى درجة أننا عندما ذهبنا لنؤدى الامتحان ونحن فى السجن، كان هناك سرادق يضم مئات من المعتقلين، وأتى د. سليمان الطماوى، وكان أيامها واحدا من رجال هيئة التحرير، ليصرخ فى وجهى محملا إياى مسئولية اعتقال كل هذا الحشد».

«وللدكتور سليمان قصة تستحق أن تروى، فبينما كنا نصعد من عملنا فى الكلية، ويتزايد نشاطنا، عقد اجتماع فى مقر هيئة التحرير لمناقشة الوضع فى الكلية، وحضره د. سليمان الطماوى وعدد من الطلاب كان من بينهم صديق لى هو طاهر القاضى، وكان عضوا حديثا فى تنظيمنا، وطلبنا منه أن يستمر فى نشاطه فى هيئة التحرير حتى نعرف ما يجرى هناك، وذات ليلة أتى طاهر القاضى إلى بيتى ليوقظنى فى منتصف الليل عائدا لتوه من الاجتماع، كان منزعجا غاية الانزعاج، فالدكتور الطماوى قدم نصيحته للحكام، قد أعدمتم اثنين من العمال فسكت العمال جميعا، ويحتاج الأمر إلى إعدام اثنين من الطلاب كى يصمت الجميع».

«ولست أدرى كيف أقنعت طاهر بأن يعلن ذلك فى الكلية (وكان عملا يفتقد الحكمة بكل المعايير)، وفى اليوم التالى عقدنا مؤتمرا طلابيا وتحدث طاهر القاضى بما كان (بعدها بفترة قبض عليه متهما بالتآمر لقلب نظام الحكم، وسجن خمس سنوات)».

«وكان بالطبع معنا فى السرادق يؤدى الامتحان».

«وكانت فرصة للدكتور الطماوى كى يتشفى فيه، وفىّ، وفينا جميعا».

(٤٧)

هكذا يحاول الدكتور رفعت السعيد أن يقنعنا أن الشيوعية كانت تتمتع بأرضية كبيرة فى بداية عهد الثورة، وكأنه يحاول أن يقنعنا فى الوقت ذاته بمدى نجاح الثورة فى محاربة الشيوعية حربا لا هوادة فيها، انتهت إلى ما انتهت إليه الحركة الشيوعية المصرية، وفى هذا الصدد فإن رفعت السعيد لا يفوت فرصة رواية بعض مظاهر ترحيب الجماهير الجامعية بالشيوعية، كما يروى بعض الاستجابات العميقة التى شكلت وجدان مجموعة من الشبان الذين يفخر بهم رفعت السعيد عن جدارة وحب، وهو يشير بالاسم إلى الشاعر العظيم نجيب سرور الذى تحول على يديه من الفاشية إلى الشيوعية.

. . . .

«ولعله من المثير للدهشة تلك السرعة التى نما بها عملنا الجامعى، الناس كانت جاهزة تماما للاستماع إلينا، الكثيرون انضموا إلينا بمجرد التلامس، تذكرت حكاية الورق الذى يتشرب الحبر، كنا مثله، نستجمع الكثيرين حولنا بسرعة فائقة».

«لم أزل أذكر كيف جندت طالبا أصبح شاعرا موهوبا فيما بعد، نجيب سرور، أتى إلىّ يحمل فى يده قصيدة صارخة فى دفاعها عن الفاشية، مؤكدا أن شعب مصر لن ينصلح حاله إلا على يد هتلر جديد، طلب أن أنشرها فى مجلة الحائط، رفضت، ناقشته طويلا، لم يبد تفهما كافيا، أمهلته للغد، أعطيته ديوان «إصرار» لكمال عبد الحليم، فى اليوم التالى أتى وهو يقطر انبهارا، سألنى مَنْ هو؟ قلت: إنه واحد من زعمائنا، قال ببساطة: أنا معه حيث يكون، وانضم إلينا».

. . . .

. . . .

(٤٨)

كذلك يروى رفعت السعيد قصة تورط مجموعة من تلاميذه أو زملائه التالين فى محاولة لاغتيال الرئيس عبد الناصر بعد أن قادوا الاعتصامات عام ١٩٥٤، وكانت النتيجة أن قبض عليهم بتهمة الاغتيال:

«ولم أزل أذكر قصة فؤاد قنديل، ويحيى عبد الرشيد، ومحمد توكل، وكيف تركتهم حين سجنت وهم لم يزالوا نبتا غضا، لكنهم ملأوا الكلية ضجيجا، وأسهموا فى قيادة الاعتصام عام ١٩٥٤، وبعدها قبض عليهم بتهمة الشروع فى مؤامرة لاغتيال عبد الناصر (عندما التقينا فى السجن أكدوا لى أن عميلا للمباحث حاول استدراجهم موحيا إليهم أن هذا هو الطريق الوحيد للخلاص من حكومة الضباط، لكن فؤاد شرد بذهنه قليلا وقال: أذكر أن الرفيق مجدى (أنا) قال: إن الماركسيين يجب أن يرفضوا الإرهاب الفردى، ورفضوا، ومع ذلك قبض عليهم، عذبوا فى السجن الحربى تعذيبا يليق بمتهمين بمحاولة اغتيال عبد الناصر، وحاولوا انتزاع أى اعتراف منهم يمكن أن يمنح ماكينة الإرهاب الوحشى مبرر الاستدارة الحاسمة ضد الشيوعيين، وضد حدتو

تحديدا، لكنهم رغم حداثة السن وحداثة التجربة، كانوا رجالا، ثم أكملوا طقوس رجولتهم، إذ وقفوا أمام محكمة الثورة ليقدموا الأدلة على تعذيبهم تعذيبا وحشيا (كان السجناء من الإخوان يعذبون لكنهم أبدا لم يعلنوا ذلك أثناء المحاكمات أملا فى العفو أو تخفيف العقوبة، أو حتى تجنبا لتعذيب أشد)، وحكم على كل منهم بالسجن خمسة عشر عاما أشغالا شاقة، لكن وقفتهم هذه أعادت ملفات قضايا الشيوعية من محكمة الثورة، إلى القضاء العادى، بعد أن كانت قد أرسلت إليهم فعلا».

«ولقد قضى هؤلاء الرفاق فترة سجن صعبة فى ليمان طرة، وحتى عندما أفرج عن الشيوعيين جميعا عام ١٩٦٤ لم يفرج عنهم بحجة أنهم متهمون فى قضية اغتيال، وليس فى قضية شيوعية، وبقوا زمنا حتى تمكنا من الإفراج عنهم».

(٤٩)

ويتحدث رفعت السعيد عن الغربة الشديدة التى عانتها حركة «حدتو» مع الرئيس عبد الناصر ونظامه، مقدما ما يعتقده سببا فى هذا الصدام المتأزم بين أصدقاء سابقين:

«كان صيف ١٩٥٣ ساخنا، وربما أكثر مما يجب».

«فالتصادم بين حدتو وحركة الجيش بلغ مداه، وربما كانت حدته نابعة من أنه تصادم بين أصدقاء سابقين، كل منهما يعرف الآخر جيدا، وربما كان عبد الناصر يتحسب ويخشى من وجود ونفوذ، أو بقايا نفوذ لحدتو فى الجيش (عندما انضم ضباط من حدتو إلى حركة الضباط الأحرار، تصور عبد الناصر أن هذا هو كل رصيد حدتو فى الجيش، واطمأن إلى أنه قد عرفهم حصرا، لكنه فوجئ بعد ليلة الثورة بأن لحدتو ضباطا آخرين، وذوى رتب رفيعة، وفى مواقع حساسة، ولم يكن هو يعرف أية علاقة لهم بحدتو، مثل القائمقام يوسف صديق، ومثل عبد المجيد نعمان ضابط لاسلكى الطائرة الخاصة بالملك، ولم يعرف عبد الناصر أنه شيوعى إلا عندما قبض عليه كواحد من الضباط الموالين للملك، فإذا بحدتو تطلب الإفراج عنه لأنه عضو فيها، وقد أثار ذلك هواجس عديدة ظلت تطارد عبد الناصر لفترة طويلة، فإذا كان بإمكان شيوعى أن يكمن فى طائرة الملك، فلم لا يتمكن غيره من أن يكمن فى أعشاش الحكام الجدد)».

«وربما لأن قيادة حدتو كانت تستشعر بعضا من عقدة الذنب، فقد شاركت، ونظمت، وأسهمت، وأيدت هذا الذى أصبح الآن ديكتاتورية عسكرية».

«والمثير للدهشة أن عبد الناصر قد ركز أكثر هجومه على حدتو دون غيرها من المنظمات الشيوعية التى كانت هى الأخرى تهاجمه، وربما بألفاظ أكثر جسامة مما تفعل حدتو».

«قال إنه يعمل فى سكرتارية مجلس قيادة الثورة، وقدم لى مجموعة بالغة الأهمية من الأخبار الخاصة بمفاوضات الجلاء، وأخبارا أخرى بالغة الأهمية، وبالمصادفة وفيما ندردش ونحن فى طريق العودة، قال: إن عبد الناصر كان سعيدا جدا بعد حملة أغسطس ضد حدتو، وأنه قال لأعضاء المجلس: «هنئوا زكريا، لقد ضرب حدتو فى مقتل».

(٥٠)

ونأتى إلى ما يجود علينا رفعت السعيد به من فصول ممتعة من قصته مع البطل العظيم يوسف صديق، وهو يبدأ برواية تفصيلات أول لقاء بينهما، وقد تم اللقاء بناء على رغبة يوسف صديق فى أخذ رأى قائد مسئول فى «حدتو» فى عرض قدمه له الرئيس عبد الناصر بأن يكون سفيرا لمصر فى الهند لتنسيق استفادة مصر من تجربة الهند.

وها هو رفعت السعيد يلتقى بيوسف صديق بناء على طلبه ويستمع إلى حديث القائد الثورى العظيم ويصارحه بأنه لا يستطيع أن يعطيه رأيا فى مسألة معقدة كهذه، لكنه يقترح عليه اقتراحا تصوره حلا لكنه فى واقع الأمر كان السبب فى نكبة جديدة ليوسف صديق وزوجته وحركة «حدتو» نفسها:

. . . .

. . . .

«وسرعان ما يوضع المسئول المحدود الخبرة (رفعت السعيد يتحدث عن نفسه بهذه الصفات) فى امتحان صعب آخر».

«كان يوسف صديق قد أبعد عن موقعه فى مجلس قيادة الثورة، وبعدها بفترة اتصل بى رفيق من إحدى خلايا كلية الحقوق اسمه محمد حلاوة، وكان على علاقة قرابة بيوسف صديق أو بأحد أصهاره، وقال العبارة ذاتها: «أحد كبار الضباط يريد أن يقابل الرفيق المسئول».

«ورتبنا اللقاء فى فيلا أحد رفاقنا بالعباسية، وفى غرفة الصالون تبدى الفارس الشامخ شخصا أسطوريا، شعيرات بيضاء تكسو فوديه فتمنحه مهابة خاصة».

«كدت أرتجف وأنا أصافحه، لولا نظرة حانية استقرت فى عينيه لتمنحانى القدرة والشجاعة كى أتعامل معه».

«أغلقت باب الصالون، ونهض هو ليقطع الغرفة كأسد محاصر، التفت إلى وسألنى: أنت المسئول؟ قلت له الحكاية.. أنا محاصر مثله، وجدت نفسى فى هذا الوضع، ولا أعرف إن كانت قراراتى صائبة أم لا، أكدت أننى بحاجة إلى استشارة رجل مجرب مثله».

«سألنى: مَنْ الذى دبر وضع المنشورات فى ملفات ضباط القيادة؟ قلت وأنا أرتجف خوفا: أنا، وقلت إننا نحن الذين شاغبنا برش صور نجيب وجمال عبد الناصر بالحبر الأسود، وحكيت له كل ما فعلنا، انتظرت منه لوما، أو تعليقا، لكنه اكتفى بأن احتوانى فى أحضانه فى حنان دافق، كنت متوترا وأوشكت أن أبكى».

(٥١)

وهو يمضى فى روايته لما دار فى لقائه بهذا البطل العظيم:

«وفوجئت به وهو يعاملنى كمسئول حقيقى».

«بدأ من جديد يخطو فى الغرفة بعصبية واضحة، كانت الكلمات المتقنة الصياغة تخرج من فمه كالشعر (فقد كان شاعرا مبدعا) وحكى:

«بعد إبعاده عن مجلس القيادة، وبعد فترة من التجاهل المتباعد، استدعاه جمال (أى جمال عبد الناصر) منذ أيام، تعاتبا طويلا، شكا له جمال من نشاط زوجته علية

(كانت عضوة فى حدتو)، وشكا له من خلافاته مع أعضاء المجلس الآخرين، ثم فجأة بدأ يتحدث عن مشكلاته وطموحاته، وتصوراته للمستقبل، وضيقه بالضغوط الخارجية، وطموحه لأن ينسج نهجا خارجيا مثمرا، وروى له بعض ما سمع عن سياسة نهرو الخارجية التى تتسق، أو تحاول، فى توازن متزن بين أمريكا والاتحاد السوفيتى، وسأله رأيه فى سياسة كهذه (أسميت فيما بعد الحياد الإيجابى)، وهل يمكن أن تحقق شيئا مفيدا لمصر؟ وهل هو شخصيا مستعد لأن يؤيد سياسة كهذه؟ وترى ماذا سيكون رأى «الرفاق» فى سياسة كهذه؟ وما أن أبدى «القائمقام» بادرة موافقة أو تأييد لموقف كهذا، حتى بادره باقتراح أن يتولى منصب السفير فى الهند ليقوم من هناك، من موقع التلامس المباشر، بتقديم المعلومات والخبرة، ونسج العلاقات (ولعل الأمر كان جدا، ولعله كان إغراء سياسيا للفارس الذى يصعب إغراؤه بالمناصب، فيسافر بعيدا عما بقى له من نفوذ وسط الضباط، ويريح ويستريح».

«صمت الفارس، وانتظر القرار، ألم أقل إن الأمر كان أكبر بكثير من طاقة فتى فى العشرين؟ لكننى كنت صريحا، ولم أخف ارتباكى أمام الفارس ذى الملامح الأبوية الطيبة، شكوت له حقيقة المأزق الذى أجد نفسى فيه، وأن ما يطرحه هو أعقد كثيرا من كتابة منشور ساخط، أو كتابة مكثفة على الجدران، أو صبغ صور الرئيس بمكياج أسود».

«ولكننى مع ذلك اقترحت، وقلت إنه ليس حلا بل مهربا».

«الرفاق القياديون فى السجن، فليفرج عبد الناصر عنهم، وليبحث الأمر معهم».

«وافق الفارس بلا نقاش، ولعله لم يكتشف، كما لم أكتشف أنا، أنها كانت مجرد إضافة للمشاغبات المتعددة الأطراف، فها نحن نملى شروطنا الصعبة، ونمليها فى الوقت الخطأ، وبالأسلوب الخطأ، وعن الطريق الخطأ».

«علمت فيما بعد أن عبد الناصر ثار غضبا عندما استمع لرد يوسف صديق، صاح فى وجهه: أنت لسه بتسمع كلام الناس دول، وكان رد الفعل مزيدا من القيود عليه، والقبض على زوجته الرفيقة علية توفيق، لتبقى فى السجن بعضا من الوقت».

(٥٢)

ولا يفوت رفعت السعيد الفرصة ليتحدث عن إعجابه العميق بهذا الالتزام الجاد الذى كان يوسف صديق نموذجا حيا وصادقا له :

«ولم أزل . . وبرغم مضى سنوات عدة، مندهشا من هذا الرباط السحرى الذى جعل فارسا كيوسف صديق يستمع فى طاعة لما يقوله فتى فى العشرين، وينفذه دون نقاش».

(٥٣)

ولا تخلو مذكرات رفعت السعيد من كثير من الطرائف التى تصور بروح ذكية بعض مظاهر الحياة العامة التى قدر له أن يعيشها بعد خروجه من السجن.

ومن طرائف هذه المذكرات إجادة رفعت السعيد وصف وظيفته فى «أخبار اليوم» محاولا وضع هذه الوظيفة فى سياق العمل اليومى فى الأخبار، وملخصا فى الوقت ذاته طبيعة الصراع المهنى والسياسى الذى يتطلبه وجود وظيفة كوظيفته، ومستعينا فى النهاية بتعبير دقيق لأستاذنا محمد فهمى عبد اللطيف وصفه فيه فى مهمته تلك بأنه ترجمان الثورة، ومع هذا فإن رفعت السعيد يصف مهمته بأنها سمجة ورديئة وذلك حيث يقول :

« . . . كان هناك شابان ممتازان، رفعت طنطاوى، وحنفى سليمان تلخصت مهمتهما فى مراجعة شرائح من الورق تسمى «السلخ»، هى كل ما سينشر فى الغد، وتمتد المراجعة من مراجعة المعلومات والأسماء وتدقيقها إلى مراجعة قواعد اللغة، وأشهد أنهما كانا بارعين، ويمتلكان ذاكرة قاموسية فيما يتعلق بالأسماء (المسئولين والوزراء والكتاب والأماكن فى بلدان العالم) والجغرافيا والتاريخ، أما مهمتى فهى مراجعة المراجعة وتدقيقها سياسيا. كان محررو أخبار اليوم لايزالون يقاومون السياسة الناصرية الجديدة، ربما بحكم العادة، عبر استخدام ذات التعبيرات القديمة، وكان ذلك يغيظ عبد الناصر ويحرجه مع صداقاته الجديدة. فعبارات مثل : عصابات إيوكا القبرصية، وعصابات فيتنام، والصين الشيوعية، ودول الستار الحديدى، كان من

المتعين إعادة ترجمتها بلغة التوجه الجديد : ثوار إيوكا، وكذلك ثوار فيتنام، والصين الشعبية، والمعسكر الاشتراكى».

. . . .

«ولعل الحادث الذى سبق التحاقى بالمؤسسة بيوم أو اثنين كان السبب فى تعيينى سريعا، فقد نشرت «الأخبار» نبأ وصول حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية إلى مطار القاهرة قادما من الخارج، ثم «وكان فى استقباله عدد من كبار الشيوعيين»، وفزع الرجل، وفزع كثيرون غيره، وأجرى تحقيق عاجل واكتشف أن يدا فى المطبعة غيرت «كبار المسئولين» إلى كبار الشيوعيين، وبرغم دقة التحقيق وإلحاحه لم يتم التوصل إلى الفاعل».

. . . .

«ولشهر واحد بعد عملى، ظللت أقوم بالمهمة التى أسماها عميد صالة التحرير وأستاذها القدير عم فهمى عبد اللطيف «ترجمان الثورة».

«وهى مهمة سمجة وروتينية، وليس مسموحا فيها بالخطأ، فالخطأ مهما كان تافها يهز سحبا رعدية بصواعق غير محسوبة، والرئيس عبد الناصر لا ينام قبل أن يسرع موتوسيكل خاص إلى بيته بأول نسخ من الطبعة الأولى ليعطى توجيهاته وتصحيحاته للطبعات التالية، والويل لنا إذ يدق التليفون بتعليمات أو ملاحظات التقطتها عين الرئيس الفاحصة».

(٥٤)

ويجيد رفعت السعيد تصوير معاناته هو وخالد محيى الدين من وشايات ومؤامرات محمد حسنين هيكل، والواقع أن رفعت السعيد يعبر عن هذه المؤامرات والوشايات بأسلوب مقتدر ينجو فيه من جلد الذات، ومن تضخيمها فى الوقت نفسه، لكنه يظهر بوضوح أنه انتصر فى هذه المعارك بفضل استناده إلى العقل وإلى حكمة التجربة التى

أتيحت له بفضل العمل السرى المنظم وما أتيح له من الوصول إلى أعماق النفس البشرية من خلال هذا العمل، ومن خلال السجن.

وهكذا نرى رفعت السعيد وهو شاب صغير فى مقتبل حياته الوظيفية قادرا على أن ينتصر على هيكل بكل نفوذه وهيلمانه ومؤامراته، وهو ينتصر لا لشىء إلا لأنه صاحب قضية وصاحب موقف وصاحب قدرة على أن يتحكم فى أعصابه وانفعالاته، على حين كان الخصم الآخر، وهو هيكل، يستند إلى قوته ونفوذه وطباعه السيئة التى لا تتورع عن البعد عن الحقيقة وعن الصدق، ولا تتورع عن اللجوء إلى الخداع، واختلاق المؤامرات، والافتراء على الآخرين من أجل الوصول إلى هدف وقتى.

وربما كان من المفيد أن نبدأ فى تناول ما استعرضه رفعت السعيد من خلال تكنيك الاقتراب بالكاميرا من البعد إلى القرب لنرى ما ترسخ فى وجدانه عن أسلوب هيكل قبل أن تقوده المعركة إلى مواجهة هيكل مباشرة.

ومن الجدير بالذكر أن رفعت السعيد ينسف بهدوء شديد وبدون ضجة كل مزاعم هيكل حول كفايته الصحفية، وكفاية الأهرام تحت قيادته، كما ينسف أيضا بهدوء أشد مزاعم هيكل عن حرصه على توفير الفرصة المتكافئة لزملائه فى الصحف الأخرى، وهو يجيد تقديم الصورة من خلال تقديم مشاعر زملائه لا مشاعره هو وحده، وإن كان هو نفسه قد اختزن التجربة ودلالتها وأجاد التصرف من خلالها فى أوقات لاحقة :

«. . . وكانت ضغوط كثيرة مرئية وغير مرئية تتراكم فوق رءوسنا، والرئيس يبدى على الدوام تململا من ضغوط ووشايات لعله لم يكن يتوقعها، أو لم يكن يتوقع أن تكون بهذه الحدة، وكان هيكل يسهم بالوشاية والإلحاح، مستفزا وبشدة من تصاعد توزيع الأخبار ليزيد بكثير عن توزيع الأهرام، رغم ما كان يحظى به من انفراد خبرى مصدره الرئيس، بل وانفراد يحميه ويصمم عليه الرئيس».

«أذكر يوما أن اندفع الأستاذ جنيدى خلف الله رئيس قسم الشئون العربية مسرعا يطلب مقابلة خالد محيى الدين، كنا حوالى الساعة السابعة مساء، وقال وهو يحاول ترتيب أنفاسه وكلماته، خبر مؤكد، الريس الليلة مسافر للسعودية من ميناء كذا. كانت

السعودية تقف على طرف الخصومة الحاد، وكانت تساند الطرف الذى نحاربه ويحاربنا فى حرب اليمن، أسرعنا إلى غرفة خالد وأسرع باستدعاء رئيس التحرير وكبار المحررين. كان الأستاذ جنيدى واثقا من الخبر ولديه اسم ميناء سعودى غير معروف إلى درجة أننا استعنا بخريطة كى نتعرف عليه، ولديه أيضا اسم القطعة البحرية التى سيستقلها الرئيس، وبسرعة جرى إعداد المانشيت الجديد «الرئيس فى السعودية»، وفيما يعكف موسى صبرى على صياغة الخبر، دق التليفون على مكتب خالد، يمنع نشر خبر رحلة الرئيس، دش بارد أغرق الجميع، وفى غيظ صامت انفض الجمع بعد أن نفض عن نفسه كل حماس».

«وبعد فترة أتت الطبعة الأولى من الأهرام لتزيد الغيظ اشتعالا، وتزيد من موقف خالد حرجا، فالمفترض أنه مقرب من الرئيس، وأنه يستمد من هذا القرب نفوذا كبيرا، كان مانشيت الأهرام «عبد الناصر فى السعودية».

(٥٥)

وهو يحاول أن يصف أو يبلور طبيعة موقف خالد محيى الدين من هذا الاستفزاز الهيكلى فيقول:

«وكان خالد يستشعر حرجا بالغا، ففضلا عن تعرض المؤسسة لمنافسة غير شريفة، فإن مركزه يهتز أمام القمم الصحفية والإدارية فى المؤسسة، وتتوالى وبكثرة أحداث مماثلة، ووصل الأمر أننا نجحنا فى اختراق دفاعات هيكل داخل مؤسسته، وكنا نعرف مانشيت الأهرام، وإذ تأتينا أوامر منع النشر كنت أرد بأن معلوماتنا أن الأهرام سينشر الخبر، ويصمم المتحدث: التعليمات عندى منع النشر».

«كانت هناك خطة آمرة حاسمة بإعطاء الأهرام مساحة للنشر محرمة على الآخرين، لكن الغريب فى الأمر أن توزيع الأخبار كان يتصاعد على الدوام ليتفوق على الأهرام، بما يدفع هيكل لإعطاء الرئيس أرقاما غير صحيحة، لكن ذلك كان يسهل كشفه، وربما كانت هذه الخطة تستهدف مجاملة هيكل، أو إعطاء الأهرام مسحة المتحدث الرسمى، أو حتى إحراج خالد».

(٥٦)

وبعد صفحات يتحدث رفعت السعيد باقتضاب شديد عن محاولات هيكل اختراق مجموعة خالد محيى الدين وتفجيرها من داخلها، وهو ما يدلنا على مدى ما كان هيكل يشعر به من ضعف فى الثقة فى قدراته وقدرات فريقه إلى حد أنه بدأ يخشى صعود وسيطرة فريق يسهل وصفه بأنه مبتدئ وغريب إلى حد كبير عن للمجتمع الصحفى:

«. . . ولم يكن الرفاق داخل المؤسسة أو خارجها يتقنون فن التعامل مع هذا الوضع المعقد، وزاد الأمر تعقيدا أن هيكل أحاط نفسه بمجموعة أخرى من الرفاق الأهراميين، وعن طريقهم حاول اختراق مجموعتنا، وبدأت عملية إغراء البعض بالانحياز لهيكل فى صراعه ضد خالد على أساس أن هيكل هو الصاعد إلى أعلى، وهو الأقرب إلى الرئيس، وهو الذى أصدر مجلة «الطليعة». . . إلخ، وحاول أحدهم معى، استدعانى إلى بيته أنا وأسعد حليم، وتناقش فى التواء. . استعدت دور الفتى الريفى، وتحصنت بأننى لا أفهم إيحاءاته وإيماءاته، ولم يكن قادرا بحكم موقعه فى الأخبار على الإفصاح، خوفا من أن أشى به».

«وفشلت الجلسة فلا أنا ولا أسعد قبلنا الطعم المقدم إلينا، ولم أبلغ خالد بالأمر، فقط بدأت أحتاط وأحاذر وأحصن موقعنا فى المؤسسة من مثل هذا الغزو، وربما كان هذا الرفض الصامت، للعرض الصامت، قد أبلغ لهيكل الذى كان متلهفا على عين له فى قلعة خالد محيى الدين، بل فى مكتبه، وربما كان هذا سر محاولة هيكل لافتراسى بعد إبعاد خالد من المؤسسة».

(٥٧)

ونأتى إلى ما تصفه أدبيات السياسة والتاريخ بأنه واقعة كاشفة للمؤامرة ولأطرافها ولأصابع الذين شاركوا فيها، وهو ما يدلنا على أن التلاعب بالأرقام كان سمة فى العهد الناصرى وما تلاه، وذلك فى ظل انعدام قدرة كبار رجال الدولة على تمحيص ما يقدم لهم على حين أنه صنع خصيصا وصيغ بصياغة كفيلة بدفع الأمور والقرارات الرئاسية إلى اتجاه بذاته:

«. . . اتصل عبد الناصر ليسأل خالد عن الأحوال المادية للمؤسسة، وعندما أجاب خالد: إنها كويسة، رد عبد الناصر بحسم: أنا سامع إنها مش كويسة (كان هيكل قد اخترق جهاز الإدارة الأعلى فى أخبار اليوم ورتب معه أمرا، أو على الأقل هذا ما اعتقدته فى ذلك الحين)، طلب خالد تقريرا سريعا عن الأوضاع المالية للمؤسسة، وبسرعة توحى بالريبة، وكأن المسئولين كانوا يعرفون فأعدوه سلفا، أتى التقرير، فتحت المظروف لأصعق، أرقام الخسائر صاعقة، بدرجة تكفى لصعق كامل التجربة».

«فجأة أحسست بمخالبى توجعنى، لم أعد بعد هذا الفتى الريفى الذى يحاول فقط الإفلات من محاولات اصطياده، آن لهم أن يروا مخالبنا، قلت بصوت عال وأنا أقدم الأوراق لخالد: أنت لست مسئولا، أنت لا تتدخل فى الإدارة، فإذا خسرت المؤسسة فهم المسئولون، وعليهم أن يستقيلوا».

«وكلفت بأن أدعو مجلس المديرين إلى اجتماع عاجل، اصطفوا حول مائدة الاجتماعات وفى صدرها جلس خالد هادئا هدوءا أثارنى، لكنه من خلال هدوئه فجر القنبلة، المؤسسة خاسرة، أنتم المسئولون، وعليكم أن تبرروا ذلك وتحددوا المسئول».

«آن لهم الآن أن يصعقوا، تشابكت نظراتهم وقال كبيرهم د. قاسم فرحات: خسائر إزاى يا أفندم؟ لا يمكن المؤسسة دى تكون خسرانة، من فضلك أشوف الورق كده يا أفندم، وأمسك بالورق وكأنه لم يره من قبل، وبخبرة منقطعة النظير استخرج المبالغ المخبأة: شوف يا أفندم فيه مبالغ كبيرة من حصيلة الإعلانات لم تحصل، ومبالغ من حصيلة التوزيع لم تحصل، وحصيلة اشتراكات لم تثبت، وثمن طباعة للغير لم يحصل»، وصاح بحماس هادئ: إزاى يا جماعة كل المبالغ دى لم تحصل حتى الآن؟».

«وتكشفت اللعبة، فالأمر بسيط للغاية، التباطؤ فى تحصيل المستحقات لعدة أشهر، فتبدو المؤسسة خاسرة ويطير الخبر للرئيس، بينما هى متخمة بالربح».

«وأعدت ميزانية جديدة. . صحيحة ومتخمة بالأرباح، وأرسلت للرئيس ليتأكد من كذب ما سرب إليه من معلومات».

ونصل مع رفعت السعيد إلى الواقعة التى أعقبها استيلاء هيكل على المؤسسة، وكيف وقع خالد محيى الدين بحسن نية فى الكمين الذى حفره له هيكل كى يدفعه دفعا إلى الاستقالة ردا لكرامته، ونعجب، وما كان لنا أن نعجب، من أن يكون عبد الناصر نفسه منتظرا على أحر من الجمر لهذه الاستقالة، وكأنما كان مشاركا بقصد فيما فعله هيكل، ذلك أن الباحث المنصف أو القارئ الواعى لما يقدمه رفعت السعيد من رواية للقصة لا يمكن له أن يقتنع أن عبد الناصر كان من السذاجة بحيث يترك لهيكل تدبير كل هذه المؤامرات من دون أن يكون عبد الناصر نفسه هو بطلها الأول، أما هيكل، فى رأى أى متعقل يقرأ الرواية، فقد كان مجرد مخلب قط، أو ممثل مساعد.

ولعل هذه الرواية ترينا كيف أن الديمقراطية الحقة ومناقشة فريق أخبار اليوم (شيوعيين وغير شيوعيين) لخالد محيى الدين فى قراره الاحتجاجى على هذه الواقعة كان كفيلا بأن يحرك الأمور فى اتجاه بعيد عن استقالة خالد محيى الدين الاحتجاجية، ومع هذا فنحن نعرف من نظام عبد الناصر أن خالد كان سيترك منصبه سواء احتج أم لم يحتج، وربما كانت استقالته الاحتجاجية أكرم له بكثير:

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

«وأصبحت ساحة المؤسسة خالية من مصطفى وعلى أمين، اللذين كان هيكل لا يستطيع مواجهتهما، وتصاعدت مطامعه فى استبعاد خالد، وأن يحل محله فيتولى رئاسة الأخبار والأهرام معا، وفى واحدة من أغرب غرائب الصحافة الناصرية».

«وبدأت سحب كثيرة فى التراكم، ومحاولات اصطياد أى خطأ، وتلويح دائم بأن المشير والجيش غير راضين عن وجود خالد على رأس أخبار اليوم، و هيكل يغذى ذلك كله بحماس متحمس».

«وفجأة أخذت السحب فى الاستعداد كى يهطل المطر» .

«وفى جلسة الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى تحدث الرئيس مطولا عن تسابق الصحف فى زيادة عدد صفحاتها بحثا عن توزيع أزيد، خاصة للأعداد الأسبوعية (أهرام الجمعة ـ أخبار السبت ـ جمهورية الخميس)، وشدد الرئيس موجها حديثه لخالد على ضرورة تقليل الصفحات لتوفير ما ينفق من العملة الصعبة على الورق المستورد» .

«وفى اجتماع أمانة الصحافة حيث كل رؤساء مجلس الإدارة، ومنهم هيكل . . . وتم التوصل إلى قرار أو بالدقة إلى كمين، اتفق على ألا يزيد عدد الصفحات (على) ثمانى، وتعهد خالد بأن يبدأ هو بأخبار اليوم (السبت) على أن يتلوه الجميع، وتعهد الجميع وفى مقدمتهم هيكل بالالتزام، وفى ديسك تحرير أخبار اليوم كان صراع مرير لتقليص الصفحات، وخرجت أخبار اليوم، رغم أنفها، متجردة من عديد من أبوابها وموضوعاتها، وكانت الحجة قرار الرئيس، وكانت أيضا أن القرار سيسرى على الجميع» .

«لكن الجميع يفاجأ بأن عدد الأهرام العادى عاد ليصدر فى ١٦ صفحة» .

«صعق كل صحفيى أخبار اليوم، فهى منافسة غير شريفة، أما خالد فقد اعتبرها إهانة لمكانته الشخصية، وكأمين للصحافة فى الاتحاد الاشتراكى، ولمنصبه كرئيس للمؤسسة، وأسرع خالد للتحدث مع الرئيس الذى كان منتظرا هذه المكالمة، كان الكمين معدا، فعبد الناصر رد ببرود وتحدث بعيدا عن الموضوع عن حكيم (عبد الحكيم عامر) الغاضب من بقائه على رأس مؤسسة أخبار اليوم، وأن المشاكسات مع هيكل غير مقبولة» .

«قال خالد : إذن أستقيل، وببرود قال عبد الناصر : أوكى» .

«واتفقا على أن يرسل استقالته معى» .

«وجلس ليكتب استقالة من عدة أسطر» .

«وحملت الرسالة إلى عبد الناصر فى بيته» .

(٥٩)

ثم يروى رفعت السعيد كيف كان عبد الناصر جالسا فى بيته أو مكتبه متعجلا استقالة خالد :

«. . . كنا بعد ظهر الخميس، عدت إلى بيتى القريب من بيت عبد الناصر، متشاغلا عن الموضوع، معتقدا أن الأمر سيمر عبر بعض الوقت، لكن عبد الناصر كان متعجلا بل متلهفا، فلم تمض سوى بضع ساعات حتى كان الأمر قد رتب تماما».

«قبلت الاستقالة. . تولى هيكل رئاسة مجلس إدارة أخبار اليوم بالإضافة إلى الأهرام، فى واحدة من أغرب نوادر الصحافة الناصرية».

«اتفق على أن يسافر خالد إلى لندن ليستكمل علاج ابنته، ولكيلا يكون مجبرا على استقبال هيكل فى الأخبار، واتفق أيضا على أن يكتب خالد، وباستمرار، مقاله الأسبوعى يوم السبت فى أخبار اليوم».

(٦٠)

ونمضى مع رفعت السعيد حتى نصل إلى تصويره الدقيق لما يصفه بأنه بشاعة دخول هيكل إلى أخبار اليوم دخول المتآمر الذى حقق هدف تآمره أخيرا، وها هو يبدأ فى معاملة رفعت السعيد على نحو لا يختلف كثيرا عن سلوك أفراد الطبقة الدنيا من رؤساء الأقسام أو المديرين على أكثر تقدير :

«يوم الأحد. . أتى هيكل عبر الممر متباهيا والسيجار يتدلى من بين أصابعه، بابتسامة مترفعة صافحنى، تأملنى ببطء سينمائى مفتعل، كأنه يقول مَنْ هذا الذى تكلموا عنه كثيرا، وكأنه يقيس كم يساوى هذا الشخص فى سوق البضاعة الحاضرة».

«اصطحبنى إلى المكتب، بدلا من خالد كان هو، أما أنا فجلست فى ذات مكانى، سأل أسئلة روتينية عدة، طلب أن أختار له سكرتيرة، ثم فاجأنى : مرتبك كام؟ قلت : خمسون جنيها (كان المرتب قد زاد)».

«أبدى إشارات اشمئزاز، أتبعها بانتقاد لاذع لخالد الذى لم يعطنى ما أستحق، ولم أعلق».

«سألنى: هل ترك خالد مقاله؟ قلت: نعم، سأل عن المقال فقلت: فى المطبعة، سأل: راجعته؟ قلت ببرود: مقالات الأستاذ خالد ترسل إلى المطبعة دون مراجعة».

«سأل بهدوء: مَنْ يكتب لخالد مقالاته؟».

«قلت بهدوء: لا أحد.. هو يكتب مقالاته بنفسه وبخطه».

«لم تعجبه الإجابة فطلب أن أعود إلى غرفتى، قلت: أى غرفة، قال: نفس الغرفة».

«بعد عشر دقائق دق التليفون كان هو، قال بلهجة آمر: رفعت، انزل المطبعة واختصر مقال خالد».

«قلت: مقالات الأستاذ خالد لا تختصر، وهو معتاد على أن يكتبها فى ذات المساحة دون زيادة».

«فقال: معلهش، فيه إعلانات، اختصر المقال، قلت: آسف».

«دعانى إلى غرفته وجرى نقاش لعله أراد أن يختبر به مدى علاقتى بخالد، ومدى استعدادى للتنازل عنها».

«ـ أليس الأفضل أن تختصره بنفسك بدلا من أن يختصره غيرك».

«ـ الأفضل ألا يختصر أصلا».

«ـ إذا لم تختصره سأضطر إلى تكليف شخص آخر».

«ـ بالنسبة لى الأفضل ألا يختصر».

«كنا يوم الأحد، والمقال سينشر السبت القادم، ولم يكن قد جُمع بعد، ولم يكن ماكيت الصفحة قد أعد بحيث يعرف هيكل مدى الحاجة للاختصار، لكنه كان يريد، وعلى عجل، أن يختبر مدى استعدادى للتعامل معه على أساس أن أخلع قميص علاقتى بخالد».

«وفى السبت التالى لم ينشر مقال خالد أصلا».

هكذا عرف رفعت السعيد بعض حدود التنكيل الذى سيمارسه محمد حسنين هيكل بعد أقل من أسبوع، لكنه فى اليوم التالى كان يواجه خطوة أخرى فى سبيل التنكيل به على يد ذلك الذى يصور نفسه إلها يعفو ولا يشغل باله بالصغائر، بينما معظم تصرفاته لا تخرج عن دائرة الصغائر:

«. . . مضى يوم آخر وأنا فى مكتبى، لا أفعل شيئا، يبدو أننى سقطت فى الاختبار، كنت هادئا، وبدأت ألاحظ البريد يمرق عبر الباب الآخر، والداخلون والخارجون يستخدمون بابا آخر، وأنا أستخدم الوقت الخالى فى المذاكرة».

«يوم آخر، ثم دخل «م. س» وقال: إن هناك موعدا مع هيكل، كان يمشى فى الغرفة بخطوات حاسمة يقطعها فى ثلاث أو أربع خطوات، ثم يعود، سألته: لماذا هو قلق؟ قال: أنا أفكر بعمق».

«والتقينا بهيكل معا، وجه هيكل حديثه لـ (م): إيه يا (. . .) ناوى على إيه؟ بدأ (م) فى عرض مشروع طموح لإنشاء بنك للمعلومات فى الأهرام يستجمع البيانات والمعلومات لتكون تحت أيدى الصحفيين والكتاب. استمع هيكل مبتسما، يده متشبثة بالسيجار، وجلسته تكتسى بحالة من الترفع، ثم فجأة قرر أن ينهى استماعه، وباغتنى: وأنت؟ ناوى على إيه؟ قلت: أنا أفضل أن أرجع إلى التحرير».

«قال: يعنى مش عايز تشتغل معى، وبأدب مفتعل بدأت أشرح له أن علاقتى مع الأستاذ خالد كانت علاقة خاصة، وأننى منذ البداية كنت أتحاشى أن أعمل فى موقع كهذا، فأنا لا أصلح لمهنة مدير المكتب».

«هز رأسه فى صمت. . وانصرفنا».

«وفى اليوم التالى كان الأسانسير يتهادى إلى الدور التاسع ليتلقفنى معاون المبنى، كان مسكينا ومؤدبا، وربما حزينا، وهو يبلغنى أن مكتبى نقل من التاسع إلى الرابع، واقتادنى إلى سطح المبنى الملحق حيث غرف خشبية متواضعة ومتهالكة، مكتب إيديال صغير بلا أدراج ويكتسى بمسحة من صدأ قديم، وكرسى عجوز التقطوه من مخزن

المخلفات، لم أشعر بأى غضاضة، لقد اخترت أنا ما أريد، وها هم الرفاق يحتشدون فى الغرف المجاورة، ينزعون من مهامهم، ويحشرون فوق السطح، انتظارا لما سيقرره رئيس مجلس الإدارة الجديد».

«وعانينا، وعانيت أنا بالذات، حالة الإنكار الشرس، والتجاهل المرير ممن كانوا يتملقون ويلاحقون بالتحية، وما هو أكثر من التحية».

. . . .

. . . .

«ولم يكن أمامى أنا سوى الانتظار».

(٦٢)

ونصل مع رفعت السعيد إلى مرحلة لاحقة من مؤامرات هيكل الخبيثة وقد وصلت إلى أقصاها حين لم يعد فى إمكان الصحفى الأوحد أن يترك شابا صغير السن كرفعت السعيد فى موضعه المتواضع من مؤسسة أخبار اليوم، وهو يفعل هذا بأسوأ صيغة يمكن أن تنتهى بها علاقة إنسان بمحل عمله حيث يطلب منه عدم الحضور مرة ثانية!!

. . . .

. . . .

«. . . لكن الأمور كانت قد تجاوزت مثل هذه المسائل الصغيرة، فقد قرر هيكل التخلص منا، أو أغلبنا».

«وفيما كنت أعبر باب المؤسسة فاجأنى رجل الاستعلامات الذى اعتدت مؤخرا على استقباله المتجهم بدلا من ترحيبه المنحنى فى الأيام السابقة، فاجأنى بأن السيد المدير العام ينتظرنى فى مكتبه، طرقت الباب وأنا أتذكر «أوامر سيادتك تنفذ يا أفندم»، كنت واثقا أننى سألقى معاملة مختلفة، كان الرجل حزينا، أو هكذا تصورت، أقسم معتذرا أنه يكن لى حبا وصداقة، ولكن، ثم توقف وناولنى خطابا فى مظروف غير مغلق، فيما كانت عيناى تسرعان عبر الكلمات، كان يقسم ثلاثة بالله العظيم أنه عبد المأمور (كنت أكثر مَنْ يعرف أنه عبد المأمور)، وأنه حرص على أن يسلمنى الخطاب

بنفسه احتراما للعلاقة بيننا، وأن الآخرين سيتسلمون خطاباتهم من شئون العاملين».

«سلمت بذات المودة القديمة، وفيما كنت أخرج تذكرت أنه لم يطلب منى ولو من باب المجاملة أن أجلس، كل شىء تم سريعا، وفى الوضع واقفا».

«بهدوء بدأت أتأمل كلمات الخطاب».

«السيد رفعت السعيد»

«حيث تقرر نقلكم لعمل فى جهة أخرى، نرجوكم عدم الحضور إلى المؤسسة مرة ثانية».

«والتوقيع: محمد حسنين هيكل».

(٦٣)

وسرعان ما ينتقل بنا رفعت السعيد فى هذه اللحظات نفسها كى يصور صورة جميلة تظهر معدن خالد محيى الدين، وهو المعدن الذى جعل رفعت السعيد (ضمن أسباب قليلة أو كثيرة) يرتبط بهذا الرجل طيلة عمره.

....

....

«... ولكى لا أفتح الباب لكلام كثير ناولته (الضمير يعود على خالد محيى الدين) الخطاب، واتسم وجهه الهادئ بسحابة حزن أحزننى أن أراها، الابتسامة الدائمة الإشراق تلاشت، قال كلمات لن أنساها طوال حياتى:

«لا تهتم، ولو اقتضى الأمر سأقتسم معك معاشى».

«الكلمات هزتنى من أعماقى وارتبكت وأنا أقول:

«الفلوس ممكن تيجى من المنصورة، المهم العمل».

«لم يتركنى، صمم أن يأخذنى معه إلى بيته بعد أن اشترى ما كان ينوى شراءه».

«فور دخولنا أمسك بالتليفون، أدار رقما من الذاكرة، ومن الحديث عرفت أن عبد

الناصر على الطرف الآخر، أحسست أن كلمات عبد الناصر باردة، وقاتمة، فقط نقل خالد لى عبارة واحدة من عبارات عبد الناصر: «هو رفعت بتاعك نزل من بطن أمه صحفى، يشوف لنفسه شغلانة تانية، اتصل بسامى يشوف له شغلانة».

«واتصل خالد بسامى شرف، قال سامى: يختار واحدا من ثلاثة اختيارات:

‹ ملحق إعلامى.

‹ وكالة أنباء الشرق الأوسط أ. ش. أ.

‹ المؤسسة المصرية للكتاب.

«تأملت الاقتراحات، قلت فى نفسى «ملحق إعلامى» مستحيل أن يعطوها لى، إذا أ. ش. أ».

«وأسرع خالد ليبلغ سامى شرف باختيارى، وبعدها بأيام جاءنى خطاب التعيين فى مؤسسة الكتاب».

. . . .

. . . .

وفى سخرية شديدة يعقب رفعت السعيد تعقيبا قصيرا يقول فيه:

«لعله أراد أن يعرف رغبتى كى يقدم لى عكسها».

(٦٤)

لكن محمد حسنين هيكل مع كل هذا لا يكف عن محاولاته للتضييق على اليسار، وإنما يبدأ فى اللجوء إلى الوقيعة بين أكثر الناس إخلاصا لبعضهم ويدبر مؤامرة يحاول أن ينهى بها علاقة رفعت السعيد نفسه بخالد محيى الدين بعدما فشل فى الاستحواذ على رفعت السعيد نفسه:

« . . . لكن الأمور لم تمض بيسر، وهيكل لم يكف عن سعيه لافتراس خصمه، أو مَنْ يعتقد أنه خصمه (خالد محيى الدين)».

«عندما وقع (الضمير يعود على محمد حسنين هيكل) خطابات فصلنا من الأخبار سافر على الفور إلى الهند، فيما أعتقد، ولعل غيابه قد شجع بعض الزملاء من أعضاء التنظيم الطليعى بالمؤسسة على إرسال برقية احتجاج إلى عبد الناصر، تحتج على فصلنا، وذلك فى سابقة لم تحدث من قبل، وأثارت لغطا شديدا، وأثارت معه غضبا شديدا لدى البعض، إذ أوحى ذلك بأن لخالد و لنا أصدقاء عديدين فى المؤسسة، وهو ما قلب كل ادعاءات وحسابات هيكل».

«عقدت مجموعة التنظيم الطليعى، وكانت تضم: الأمير العطار - حامد زيدان - إسماعيل يونس - جمال بدوى - سعيد حبيب وأنا، اجتماعها الدورى، وأثير موضوعنا، واقترح البعض أن نرسل برقية احتجاج، واتفقنا على صياغة عاصفة، وفجأة صمم حامد زيدان على أن نذهب معا لنرسل التلغراف، كان الاجتماع فى بيت حامد زيدان بالعجوزة، وتمشينا إلى مكتب تلغراف الزمالك، وأرسل التلغراف أمامنا جميعا، وبمعرفتنا جميعا، وبطبيعة الحال كنت محرجا ولم أشارك فى الحوار، ولكننا ونحن نغادر المكتب التقطنى حامد بعيدا عن الآخرين قائلا: لو لم نرسله مع بعضنا البعض، لما أرسل أصلا».

«وازداد غضب هيكل عقب عودته، فما اعتاد هو، ولا اعتاد النظام على مثل هذه الاحتجاجات، خاصة أنها تأتى من التنظيم الطليعى ضد هيكل بما أشعل حساسيات كامنة، وتصور البعض أننى خلفها، وهذا غير صحيح».

«لكن الأمور كانت تتطور بما هو أعمق وأكثر حدة».

(٦٥)

ونأتى إلى حل العقدة:

«وذات يوم زارنى فى بيتى على غير انتظار خالد محيى الدين، كان وجهه صارما على غير العادة، ما أن جلس حتى سألنى: ماذا حدث بينك وبين هيكل عندما قابلك فى مكتبه؟ (كنت قد تحاشيت محرجا رواية ما حدث، وحتى لا أصور نفسى فى صورة الذى يقدم تضحية من أجل صداقته) حكيت ما حدث بالضبط، لكنه عاد ليقول بالإنجليزية: تذكر جيدا؟».

«قلت: أنا متذكر جيدا، فهذه أشياء لا تنسى، قال مرة ثالثة ورابعة وربما أكثر: «تذكر جيدا»، وأجبت بملل ظاهر: إننى متذكر».

«فقال (الضمير يعود على خالد محيى الدين): هيكل قال لعبد الناصر إنك ألححت عليه أن تعمل كمدير لمكتبه، لكنه رفض لكى لا أشعر بأن أقرب الناس إلى يتخلون عنى».

«لست أدرى من أين واتتنى هذه الفكرة الهادئة، وأنا فى قمة الغليان، أمسكت بالتليفون دون أن أقول شيئا، طلبت «م. س» فقط قلت له: أرجوك تعالى إلى بيتى، وفيما نحن فى الانتظار تحاشينا العودة إلى هذا الموضوع، كنت أستشعر قدرا غير محدود من الغيظ، وأكثر ما كان يغيظنى هو أننى أصبحت أداة فى صراع كبير، وتذكرت القول القديم «الأفيال تتصارع والعشب يتكسر»، وقررت ألا أسمح لأى صراع بأن يكسرنى».

«وصل «م» وعلى الفور قلت له: من فضلك احك ما دار بينى وبين هيكل من حديث».

«وحكى بأمانة وبذاكرة قوية ما كان بالضبط، قاله مرتبا ودقيقا بما يوحى أنه حكاه أكثر من مرة».

«نظرت إلى خالد محيى الدين الذى أشرق وجهه بابتسامة مرتاحة ولم أقل شيئا، هو قال لـ «م»: مستعد تشهد بكده؟ قال: طبعا، وحكينا له الموضوع».

«وعندما غادر «م» منزلى قلت عبارة واحدة لخالد: أنت لم تعرفنى بعد، صمت ولم يجب، لكنه التقط التليفون وأدار ذات الرقم من الذاكرة وعلى الطرف الآخر كان عبد الناصر، حكى له كل ما حدث، ما قلت، وما قاله «م»».

«لسبب ما كان عبد الناصر غير مرتاح، أو هذا ما استقر فى ذاكرتى، وقال: إنه سيطلب إلى السادات أن يحقق فى الأمر».

«وعندما غادرنى خالد محيى الدين فوجئت بـ «م» يعود إلى بيتى، قال بصراحة محمودة إنه اتجه من عندى إلى «ل» وأنه نصحه ألا يشهد، حتى لا يفسد مستقبله

الصحفى بالأهرام، أجبته بهدوء إن الشيء الأهم عندى هو شهادته أمام خالد، أما الشهادات الأخرى فهى لا تعنينى».

«ولم يهتم أحد بالتحقيق، ففيما يبدو أن عبد الناصر كان يعرف الحقيقة، وليس بحاجة إلى تحقيق».

(٦٦)

ونأتى إلى حيلة جديدة من حيل هيكل فى إفساد الجو أمام قيادات اليسار، وتضييق الخناق عليهم، وخلق المصاعب أمامهم، وهو يفعل كل هذا بدأب شديد، ثم يحاول أن ينكره من خلال مسوح يرتديها تهيىء له أن يصور نفسه ملاكا أو على أقل تقدير بشرا مثاليا يعود إلى الحق عندما يدركه:

«. . . فبعد فترة، وفيما أنا فى مكتبى بمجلس السلام (أعيد تشكيل المجلس باتفاق مع عبد الناصر، وأصبح لنا مقر بالدور التاسع فى مبنى أمانة الاتحاد الاشتراكى)، تلقيت مكالمة من سكرتيرة هيكل فى الأخبار أبلغتنى أن أحضر فورا لمقابلته».

«من جديد آتى إلى هذا المكان، من جديد أمشى فى ردهة الدور التاسع، هذه المرة أمشى حذرا، فلست من سكان المكان، ما أن رأتنى السكرتيرة حتى فتحت باب الغرفة لأدخل إلى هيكل لأجد المديرين جميعا فى اجتماع، سلم الجميع بدرجة محدودة من الحماس، قال هيكل: أنا حاسس إن فيه وضع لازم يتصلح، ولهذا قررت أن تعود لعملك فى الأخبار، وأملى، وكتب المدير العام، ذات المدير العام، : «يعود رفعت السعيد إلى عمله بمؤسسة أخبار اليوم بذات شروط العمل السابقة»، ووقع هو ووقع المديرون كل فيما يخصه».

«واكتملت الإجراءات فى لمح البصر».

«لم أفهم سر هذا الحماس المتعجل، بعدها بساعات فهمت، هيكل ترك الأخبار ليحل محله محمود العالم».

«وعندما أتى محمود ليجدنى قد سبقته بساعات، استشعر أن هيكل ربما أعادنى لأحرجه، وليشاع فى المؤسسة أن محمود كخالد سيعيد الآخرين».

«ولم يمتلك محمود أية رغبة فى الحرج، وكان أول قرار اتخذه هو إلغاء قرار عودتى للمؤسسة».

«وهكذا ومن جديد أتذكر وبألم «الأفيال تتصارع والعشب يتكسر».

«لكن هيكل كان ودودا إلى درجة أنه أصدر فى ذات اليوم قرارا بتعيينى فى الأهرام (فى مجلة الطليعة)، البعض فسرها بسوء نية قائلا: إنها رسالة ساخنة لليسار كله إن لم تكن لصالح هيكل، فهى ضد محمود، لكننى فضلت أن أعتبر الأمر أكثر نقاء من ذلك، وأن الرغبة الحسنة هى الدافع، وأنا على أية حال لم أعد أمثل بالنسبة له سوى شخص مظلوم يتعين رفع الظلم عنه، فضلا عن أن علاقة هيكل بخالد كانت قد تحسنت وعادت إلى صفائها المعتاد والممتد».

(٦٧)

وفى مقابل هذه الأحاديث عن خبث هيكل ومؤامراته يتحدث رفعت السعيد أيضا عن دهاء على أمين فيقول:

«فمثلا استطاع على أمين بدهائه المعروف أن يمرر قصة مسلسلة فى مجلة «هى» التى كان يرأس تحريرها، وكان عنوانها «مصنع الشموع».

«وظلت حلقات القصة تتوالى دون أن يلتفت إليها أحد، أو حتى يهتم بقراءتها، ثم جاء مظروف من مكتب الرئيس وبه حلقات القصة وخطوط حمراء تحت أسطر محددة، وكانت مجرد محاولة الربط بين هذه الأسطر كافية لحل كل الرمز، وبدأت أقرأ الحلقات من بدايتها، ودقات قلبى تسرع لتسبق عينى، وملخص القصة بسيط وواضح، لكنه يزداد وضوحا إذا ما خلصته من الرتوش المتعمدة، وبعض التفاصيل المفتعلة، شقيقان (على ومصطفى أمين) أحزنهما أن القرية مظلمة فى كل مساء فقررا إنشاء مصنع للشموع (أخبار اليوم)، لكن العمدة المستبد (عبد الناصر) لا يحب لأبناء القرية أن يعيشوا فى النور، فأبعد الشقيقين وأتى مكانهما بشيخ الخفر (خالد محيى الدين) ليدير المصنع، وأتى شيخ الخفر ومعه مجموعة من الأجلاف سيئى النية، وقليلى الخبرة، والذين يضمرون شرا للقرية (نحن)، ويوشك المصنع أن يدمر حتى يعود الظلام من جديد».

«ولم نفعل شيئا، فالتعليمات لا تصادم مع مصطفى أمين».

(٦٨)

وبعد هذا كله يشخص رفعت السعيد مشكلة الأخبار تحت قيادة خالد محيى الدين فيصوغ تشخصيه فى عبارة موجزة ودقيقة إلى أبعد حد، أن فريق خالد محيى الدين لم يكن يدرك حقيقة أن وجودهم فى الأخبار لا يمثل دائرة مستَقلة عن مصر (المتوحدة) التى كانت كلها فى قبضة قوية هى قبضة الرئيس جمال عبد الناصر، الذى كان قادرا على الإلمام بكثير من التفصيلات والصراعات، وكان فى الوقت ذاته حريصا على أن يفرض رأيه وتوجهه فى كل هذه التفصيلات والصراعات.

ورأيى أن هذا التشخيص الدقيق الذى يقدمه رفعت السعيد ينطبق على حالات كثيرة مثيلة كان أصحاب البطولة فيها يعجبون من تناقض قرارات الرئيس عبد الناصر مع قرارات أخرى له، أو تناقضها مع توجهاته الواضحة، وما كان لهؤلاء أن يعجبوا لو أنهم فهموا ما فهمه رفعت السعيد، أو لو أنه قد أتيح لهم فى مرحلة مبكرة أن يقرأوا مثل هذا الذى كتبه رفعت السعيد:

« . . . وباختصار كان البعض يرى فقط خالد على قمة أخبار اليوم، لكنه لا يرى عبد الناصر على قمة السلطة».

«وحتى بعض الرفاق العاملين معنا فى الأخبار لم يتقنوا فن التعامل مع هذا الوضع الملغوم بمحاذير قاسية، واستبدت بالبعض منهم منافسات متبادلة، كتلك التى وقعت بين على الشلقانى وسعد التائه، وكل منهما صديق حميم وقديم لخالد، وكلاهما وافد إلى المؤسسة مع خالد، وأراد خالد أن يذيب الخلافات بأسلوبه السمح فدعا كل القادمين معه إلى اجتماع يحاول التوفيق بين القطبين، فأثار التقاء هذا الجمع فى غرفته هواجس وشائعات وأقاويل كنا فى غنى عنها».

(٦٩)

ويستطرد رفعت السعيد إلى الحديث عن تقييمه لشخصية على الشلقانى، ثم لدوره فى هذه الأزمة:

«والحقيقة أن على الشلقانى كان إداريا ممتازا، لكن بعضا من حدة كانت تغلف تصرفاته، ربما كان مبعثها عدم قدرته على التعرف على حقيقة الوضع، وحقيقة المؤسسة، وحقيقة التوازنات».

«أذكر أنه فى فترة كان خالد مسافرا فيها للخارج واصطدم بموسى صبرى، وقرر إيقافه عن العمل، وهلل الرفاق فى المؤسسة وخارجها للضربة الموجهة للخصم الطبقى العتيد، لكننى كنت على الضفة الأخرى، فمعرفتى المحدودة جدا بالتضاريس العلوية تؤكد أن أحدا مهما كان لا يستطيع أن يمس رئيس تحرير دون إذن من الرئيس، ولم يكن الشلقانى يمتلك قناة كهذه، وإن كان يستشعر أن الرئيس لا يحب موسى صبرى، ولكن الأمر يختلف فى حسابات الرئيس، فسواء وافق الإجراء هواه، أو لم يوافقه، فهو خاطئ مادام أنه لم يأذن به، ألححت طالبا من على الشلقانى أن يؤجل الصدام إلى حين عودة خالد، فرفض، حذرته صراحة فرفض، وفيما يبدو، وهذا مجرد تخمين، أنه استشار أحد الرفاق المقربين من هيكل، فأعطى هيكل الضوء الأخضر، ليس فقط ليسوى حسابات قديمة مع موسى صبرى، وإنما ليربك تجربة خالد فى الأخبار، ويوسع مساحة الوقيعة عند الرئيس، وفور عودة خالد عاد موسى صبرى، وصرنا صديقين حميمين، فقد عرف، لا أعرف من أين، أننى دافعت عنه دفاعا مستميتا أوقعنى فى خلاف حاد مع على الشلقانى، ولعله من الضرورى أن أشير إلى أن الرئيس الذى أبلغ خالد شديد غضبه، وضرورة عودة موسى صبرى، ما لبث بعد فترة أن أمر بإبعاد موسى صبرى إلى الجمهورية».

(٧٠)

وفى وسط كل هذا الحديث عن العذاب والغربة والألم والكفاح والعمل السرى، لايبخل علينا المؤرخ فى شخصية رفعت السعيد وقلمه بكثير من القصص التى تصور مفارقات الصراع الاجتماعى والسياسى فى عهد الثورة، ولعل أبلغ قصة تصور هذه المفارقات هى القصة التى انفرد بها رفعت السعيد حتى تبدو وكأنها من اختراعه، وهى قصة البرنس محمود ناموق الذى قدر لرفعت السعيد أن يعرفه فى مستشفى السجن، وأن يستمتع بصحبته، وأن يفيد منه، ومع أن رفعت السعيد يقدم القصة بما يضمن لها كل عناصر التشويق، فإن مضمون القصة نفسه لا يخلو من كثير من العظة والاعتبار :

«. . . البرنس محمود ناموق، شخصية غريبة، آخر بقايا مستحقى العرش فى الأسرة المالكة (ربما نقف هنا لنتساءل على أى أساس حسب رفعت السعيد هؤلاء المستحقين ورتبهم !!)، رجل واسع الثراء، وثرواته منطلقة فى أرجاء عدة من العالم: تركيا، فرنسا، إسبانيا، وقصوره وخدمه وحاشيته كذلك، لكن مقره الرسمى جنيف، يعيش حياة لاهية، لا يتوقف عن إمتاع نفسه، بكل ما يريد، وكل ما تريد».

«فى حديث صحفى لأحد أمراء الأسرة المالكة الهاربين فى الخارج أدلى به لصحفى أجنبى، ردد اسمه باعتباره الوريث الشرعى للعرش المصرى، ودعا الغرب إلى فعل شىء للإطاحة بحكم العسكريين وتنصيب صاحب العرش على عرشه».

«ناموق لم يسمح بالتصريح، ولم يهتم بشجرة العائلة، ولا بمسلسل الوراثة، الرجل مشغول بنفسه وبتدليلها، لكن حكام مصر اعتبروه خطرا داهما».

«بالمصادفة البحتة، وعلى إثر تعطل طائرته وهو فى طريقه إلى موعد غرامى فى تايلاند (كما يبدو مثيرا للدهشة أن يسافر شخص مهما كان مرفها وثريا ومنعما من جنيف إلى تايلاند من أجل موعد غرامى)، واضطرار الطائرة للهبوط فى مطار لم يكن مقررا لها أن تهبط فيه، بهذه المصادفة وحدها وقع البرنس فى يد للمخابرات المصرية».

«وعلى عجل حوكم، ظل مندهشا طوال المحاكمة، وعلى عجل صدر الحكم بسجنه خمسة عشر عاما، وظل مندهشا طوال فترة سجنه».

«والتقيت بالبرنس فى مستشفى السجن حيث أتاحت لى وساطة عائلية إقامة هناك لفترة ليست بالقصيرة، كان ضخما، ومترفعا، ومثقفا ثقافة رفيعة، كم أدهشنى بفيض معلوماته، كان من هؤلاء الذين يعتبرون الثقافة متعة، وأمتع نفسه كثيرا، وطويلا جلسنا معا يحدثنى عن حياته ومغامراته الغرامية، من بينها علاقة حب مع الممثلة جريس كيلى التى أصبحت أميرة موناكو، من أجلها دفع كامل نفقات إنشاء سينما فى السجن، واشترى كل أفلامها لتعرض تقريبا كل يوم، وكان فيض ثقافته الرفيعة فى الفن، والشعر، والأدب، والأديان المقارنة، يتدفق مثيرا انبهارى، كان الآخرون فى المستشفى يفضلون الثرثرة المتجردة من أية جدية، فهموم السجن تكفى، ووجد فى

مستمعا دائما، وأتقنت معه فن الاستماع، واستمتعت فعلا باستماعى إليه، ولعل أكثر ما أبهرنى هو دراسته العميقة لتاريخ الفراعنة، وكان يقرأ الخراطيش الهيروغليفية ببراعة أثارت دهشتى ومتعتى فى آن واحد».

«كان أكولا يأكل بشراهة مثيرة للدهشة، يقتسم معك أى شيء، إلا الطعام الهائل الكم، الذى يأتيه يوميا من الخارج».

«تولت الأميرة نسل شاه رعايته، أمر بتحويل قدر من أمواله إليها، وأنفقت عليه بسخاء، وكانت تمتلك حظوة واضحة (بررتها الهمسات بأنها على علاقة بأحد قادة الثورة)، وبفضل هذه الحظوة عومل البرنس كبرنس، طعام يومى من الخارج، إقامة دائمة بالمستشفى، حقوق لا يتمتع بها أى سجين، بما فيها حقه فى التجول فى السجن فى أى وقت، وأى مكان، وكان سيل أمواله المتدفق يكفل له إرضاء الجميع».

«وكانت أيام زيارة البرنسيسة له مشهودة، قطعة جميلة من المرمر الوردى، تتدفق جمالا وحيوية وترفعا، كأنها واحدة من آلهة الأوليمب، يصحبها شماشرجى يفسح أمامها الطريق هامسا: «البرنسيسة»، ولم تكن بحاجة إلى مَنْ يفسح لها الطريق، فعطرها الذى يظلل المكان كله، ومشيتها المترفعة كانت كفيلة بذلك».

«وتمضى سنوات دون أن يفارق البرنس بقامته المهيبة، وثقافته الراقية الموسوعية مخيلتى، وأحزن، ولم أزل، إذ أتذكر أنه مات فى السجن، دون أن يحقق حلمه الأخير، أن يخرج من السجن بأى ثمن، ليتم رحلته إلى تايلاند، ويحقق لقاءه المنشود بفتاة تايلاندية ضرب لها موعدا غراميا».

(٧١)

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن فى هذه المذكرات حديث عابر عن دور النبيل عباس حليم فى مساعدة المعتقلين على الهرب:

«. . . وقد أسهم فى تدبير أدوات الهرب: منشار، ومفكات، وغيرها، النبيل عباس حليم، الذى كان معتقلا معهم، وإن كان يتمتع بمزايا خاصة سخرها لتوفير المعدات المطلوب».

. . . .

. . . .

. . . .

(٧٢)

وعلى نحو ما فعل رفعت السعيد فى قصة هذين الأميرين أو النبيلين يقدم لنا رفعت السعيد قصة معرفته بواحد من المنشقين المهمين فى تاريخ الكنيسة المصرية الحديث، وهو إبراهيم هلال، الأصولى المسيحى الذى ثار على الأنبا يوساب فى واقعة معروفة فى تاريخ الكنيسة المصرية فى العصر الحديث:

«. . . وهناك التقيت بشخصية فريدة، الأستاذ إبراهيم هلال رئيس جمعية الأمة القبطية، وللمرة الأولى والأخيرة ألتقى بمن يمكن تسميته أصولى مسيحى، وكان يعرض أطروحاته بحماس متزن، فهو لا يعرف مدى ومساحة رد الفعل لدينا، لكن أغلب انتقاداته كانت موجهة للبطريرك آنذاك (الأنبا يوساب)، ومعاونه ملك، ولأسلوب الكنيسة فى إدارة نفسها، وفى إدارة حركة مطالبتها بمطالب الأقباط».

«وذات يوم طلبوه للزيارة، حضر صامتا ثم انتحى بى ليحكى لى القصة، زاره إبراهيم المنياوى باشا، أحد أقطاب الأقباط، ليبلغه رسالة من الحكام: هو سيمثل غدا أمام المحكمة، القاضى هو ذات القاضى المستشار م.ع، والترتيبات هى ذات الترتيبات (الإشارة التى يشيرها رفعت السعيد هنا يذكرنا فيها بالقاضى الذى عرض على أسرة رفعت السعيد أن يصدر عليه حكم بالبراءة فى مقابل مادى محدد)، والمساومة هى: أن يذهب للمحكمة ليعلن تأييده للحكومة، وأنه بتحركه فى محاولة اختطاف البطريرك كان يمارس عملا قبطيا صرفا، وأن يعلن تأكيده على حل جماعة الأمة القبطية، وإلا فإن القاضى مكلف بالحكم عليه بالسجن خمس سنوات أشغال شاقة».

«استشارنى، وانتابتنى حيرة، فأنا لم أزل أعانى من قرار المسئول المتشدد، وأعرف معنى تنفيذى لهذا القرار، لكننى لا أستطيع أن أدفعه دفعا إلى التخلى عما يعتقد، راوغته طويلا واعتذرت فى النهاية عن تقديم أية مشورة قلت له: فكر طويلا، وحكم ضميرك، صمت وقال: سأقضى الليل أصلى، وسيمنحنى يسوع القرار الصائب».

«فى الصباح عجلوا وأخذوه قبل أن نلتقى، عاد بعد الظهر، ترافع عن نفسه ودافع عما فعل (كان محاميا) فاجأ الجميع بأن حكى قصة زيارة المنياوى باشا، والمساومة التى عرضها عليه، وأكد أنه سوف يحكم عليه بخمس سنوات أشغال شاقة».

«استمع القاضى فى هدوء، والمحامون فى ذهول، وفى الغد أصدر القاضى الحكم المقرر، لم يتجاسر أن يغيره حتى ولو من قبيل إثبات خطأ المتهم، أو خطأ التهم التى ساقها إليه من أنه يتلقى أوامر من الأمن».

(٧٣)

ولا تفارق رفعت السعيد بالطبع هواية التأريخ من وجهة نظر ماركسية تعلى من شأن المتثمين والمنظمين، وتحط بكل ما أوتيت من قدرة من شأن «الآخرين»، ولعل فى حديثه عن الدكتور راشد البراوى، وحديثه الآخر عن الضابط مصطفى كمال صدقى ما يصور هذه الخصلة حين يتاح لها أن تسيطر على قلم قادر على تقديمها على نحو يتسم بالدهاء:

«وفى زمن آخر ألتقى فى السجن بمرفهين آخرين تسجنهم حكومة الثورة، وتأمر بمعاملتهم معاملة مميزة، د. راشد البراوى، الذى كان أثيرا لدى رجال الثورة، وتصور البعض، أو حاول هو أن يصور للناس أنه المفكر والمدبر لهؤلاء الشبان العسكريين، ما لبث العسكريون أن انقضوا عليه، عبثا حاولت أن أخدش وعاء معلوماته، أو حتى أعرف منه سر هذا الانقضاض، لكن المسكين كان مذعورا، وكان ذعرا مستديما، يخيم عليه فى كل لحظة، وفى كل تصرف، ينسى أى شىء إلا الخوف، لم ينطق بحرف، ولم يتفوه بلفظ، وكان يتصور أن خلف كل حائط ميكروفون للتسجيل، وأن كل رجل هو بالضرورة جاسوس للحكام، وظل هكذا دوما».

. . . .

«وكان هناك الغريمان الشهيران د. يوسف رشاد، ومصطفى كمال صدقى، كان رشاد يتكلم بلا انقطاع، نافورة دائمة من المعلومات المثيرة للدهشة، عن الملك وعن الضباط، وكان يتحدث عنهم بأسمائهم المجردة، وأحيانا بتهكم واضح، ويروى عنهم ما يثير السخرية منهم، دون التحفظ أو خوف، وكان أغلب حديثه منصبا على أنور

السادات، وعلاقتهما المشتركة، ودهشته كيف استطاع «أنور» أن يركب الجوادين معا، وحتى آخر لحظة».

«والعلاقة بين الغريمين الشهيرين تظل حميمة فى الظاهر، ويتبادلان الطعنات من الخلف دوما، أما الأكثر شهرة منهما معا. . ناهد رشاد، فكانت تحضر يوميا تقريبا لتقتسم الوقت المخصص للزيارة بينهما، لكنها قسمة غير عادلة، فلمصطفى النصيب الأكبر دوما».

(٧٤)

ونأتى إلى حديث الدكتور رفعت السعيد عن وقوفه هو وأقرانه أمام المحكمة العسكرية فى الستينيات، وما ارتبط بهذه المحكمة من ملابسات تاريخية طريفة تصل إلى حد المفارقات على نحو ما سنرى، وهو يبدأ حديثه عن هذه المحاكمة بداية ذكية يتعمد فيها أن يقدم رئيس المحكمة تقديمًا يكفل له أن ينقد المحكمة وتشكيلها وأداءها على نحو لا نهائى، وأن يفعل الشىء ذاته فى أحكامها كذلك، بل إنه ينسحب بأحكامه، دون أن يصرح بهذا، على مجمل أداء المحاكمات الشبيهة، وعلى مجمل أداء المشير عبد الحكيم عامر، وجماعاته. . وبالطبع على مجمل أداء الرئيس عبد الناصر وعصره.

ها هو رفعت السعيد يتحدث عن رئيس المحكمة فيصوره لا جاهلا بالقانون فحسب وإنما هو يصوره عاجزًا عن أن يفهم القانون وأصول القضاء وللمحاكمات من باب أولى.

وها هو رفعت السعيد لا يجد حرجًا فى أن يصف هذا القائد العسكرى البارز بأنه كان مسكينًا بمعنى الكلمة:

«. . . ولم يكن الفريق هلال عبد الله هلال قائد سلاح المدفعية، شريرًا، ولا كان طيبًا. وهو مجرد واحد مَن خيوط العنكبوت الناصرى، يؤمر فيطيع، فيجزل له العطاء لقاءه طاعته».

وبالنسبة لنا كان مسكينًا. فحتى وهو يتشدد، ويستبد، ويصدر قرارات عسكرية صارمة وآمرة، كنا نعرف أنه مجرد منفذ للأوامر.

«وكان الفريق رغم استبداده لمفترض، وكونه واحدًا من أقرب المقربين للمشير عامر، مسكينًا بمعنى الكلمة».

«فهو جاهل بأولويات القانو ن الذى يفترض أنه سيطبقه، وهو من ذلك الصنف الذى يعتقد أنه قد تجاوز مساحة التعليم».

«ولكنه كان يخفى جهله بتكشيرة مستعصية على الانفراج، ويتجهم يوحى بالجدية، وبأوامر عسكرية آمرة... ولا شيء بعد ذلك. وهو لم يكن يعرف طبيعة القضية التى سينغمس فيها... تصور أننا مجرد أولاد مشاغبين، ضد الثورة، وينبغى تأديبهم بأحكام رادعة. لكنه فوجئ بمسألة معقدة غاية التعقيد، فالمتهمون يؤيدون حكم عبد الناصر. ومنغمسون فى كأس التأييد حتى الثمالة. لكنهم فقط يختلفون حول مسألة الديمقراطية».

«وزاد الأمر مشاكسة، أن يأتى له المتهمون فى الجلسة الأولى كومة مغلفة بالقطن والشاش والجبائر».

«ولعله أدرك الفخ، فبوليس أمن الدولة خشى أن يتأثر القاضى العسكرى غير المدرب بمقولات التأييد لزعيمه، فدمر المتهمين بأمل أن يذهبوا إليه ساخطين، شاتمين، معارضين... ولكن حتى هذا لم يحدث».

«وعلى المنصة اصطف أربعة من قادة الجيش، هو... (تركى الملامح، بشرة بيضاء سرعان ما ينسكب عليها لون أحمر صارخ مع كل انفعال... وما أكثر ما ينفعل). وضابطان عظيمان آخران؛ واحد من سلاح الطيران، وآخر لا أتذكر من أين أتوا به.. هم جميعًا من حواريى المشير أتى بهم مكرمة منه، حيث استمرت جلسات محكمتهم بالإسكندرية لعديد من الأشهر حاكموا فيها ثلاث مجموعات ونالوا آلافًا عديدة من الجنيهات كبدل سفر».

«ثم المدعى العام العسكرى، وهو الوحيد اليقظ، المدرك، القادر على التعامل مع ابتكارات المحامين».

«وعندما فوجئ الفريق بمتهميه فى الجلسة الأولى مضروبين بوحشية مدمرة، ارتبك، وتعالى صراخ عائلاتنا، وتراكمت احتجاجات المحامين، ووقف شهدى عطية ليتحدث عما حدث مؤكدًا أننا لم نزل نؤيد الرئيس، وتداخلت الأصوات بصورة مربكة ومرتبكة. وتبدى واضحًا أن «الفريق» فقد السيطرة على السفينة التى يجلس فى

صدرها. وهنا مال المدعى العسكري على أذن عضو اليمين، الأقرب إليه، فمال بدوره على أذن الفريق.. وفتح الله عليه بـ «ترفع الجلسة» ومضى مهرولاً لدرجة أنه خيل إلينا أنه لن يعود».

«وبعد خمس دقائق، كان الفريق جالسًا على منصته من جديد، وقد استعاد كفاءته المفترضة، وبكلمات آمرة كطلقات المدفعية التي يتقن بالطبع إطلاقها قال: «قررت المحكمة تأجيل المحاكمة أسبوعًا، على أن تعقد الجلسات سرية».

«وانفرد بنا العسكريون، بعيدًا عن أية أعين أخرى».

(٧٥)

ويمضى الدكتور رفعت السعيد فى سرد أحداث المحكمة والمحاكمة مركزًا على ما يؤيد وجهة نظره القاسية فى هذا الأداء الصورى الذى واجه به النظام الناصرى جماعات اليساريين الذين كانوا يؤيدونه بينما يرى النظام مصلحة فى تأديبهم على هذا النحو:

«وتستمر المحكمة أشهرًا... والقاضى لا يتعلم، والمحامون وأكثرهم محترف للدفاع في القضايا السياسة يقبضون أموالاً كثيرة، ويترافعون مجرد أدء للواجب، دون أى توقع لإمكانية التأثير فى القاضى... الذى كان يتركهم يصرخون بينما يبتعد هو بعيدًا بأفكاره، وحتى بنظراته، وزاد من سخافة اللعبة أن القاضى قد أبدى جهلاً مستعصيًا على فهم أوليات القانون».

«أحد المحامين حاول أن يجد ما يقول... فسأل هل الجريمة المنسوبة للمتهيمن جنحة أم جناية؟ كان القاضى بعيدًا، فألح المحامى فى السؤال حتى استعاده إلى ساحة المحكمة... ونكتشف أنه لا يعرف... هو فقط يعرف أننا متهمون... أما هذه المسائل المستعصية على فهمه فهى صعبة عليه ومن ثم فقد صرخ صرخة آمرة «اسأل المدعى... أو اقرأ الملف.. أنت جاى تمتحنى؟».

«وأدركنا جميعًا ـ متهمين ومحامين ـ عمق الورطة التى أوقع فيها المشير رجله المفضل».

«لكن الأمر لا يمر بسهولة، فأحد المحامين يكتشف أمرًا غاية فى الغرابة والبساطة. نسى الحكام أن يصدروا مرسومًا بتجديد إعلان حالة الطوارئ. . . فظلت مصر لشهر أو شهرين ـ رسميًا وليس واقعيًا ـ خالية من ميكروب الطوارئ. تذكروا الأمر بعدها. وجددوا إعلان الحالة. لكن الغريب أن المرسوم الجمهورى الذى أصدره عبد الناصر بتشكيل المحكمة قد صدر خلال فترة الثغرة هذه. والمرسوم يستند إلى حق الرئيس فى حالة الطوارئ فى الأمر بتشكيل محاكم عسكرية لمحاكمة مدنيين، وبهذا الاكتشاف المثير تلاعب المحامى بالمحكمة. . فقرار تشكيلها باطل. والتصحيح اللاحق غير مجد. ولا مفر من أن تنسحب المحكمة انتظارًا لمرسوم جديد».

«كان الفريق شبه نائم. . امتدت الهمسة المدركة لخطورة ما يقال من المدعى إلى عضو اليمين لتوقظ سيادة الفريق. استيقظ، انتبه، تابع المحامى المتحمس فى اندهاش واضح، لكنه لم يفهم».

«وتطلب الأمر همسة أخرى ممتدة كى يدرك حقيقة الورطة.

ولكن، هل يمكنك أن تحاصر الذئب بحبال المنطق؟»

فجأة انطلقت دفعات من الطلقات من رئيس المحكمة. . . «إيه يا أستاذ، أنت عايز إيه بالضبط؟ عايزنا نقوم نروح بيوتنا. . هو لعب عيال. . مرفوض يا أستاذ».

«حاول المحامى أن ينطق. فإذا بانطلاقة مدفع ثقيل الوطأة تدوى بكلمة واحدة «اسكت».

«وسكت المحامى، خلع روبه التقليدى وخرج من الجلسة ربما احتجاجًا، وربما اعترافًا بأنه لا جدوى، وقبل أن يصل إلى باب القاعة، امتدت يد إلى كتفه فى هدوء وحنان. واصطحبه أحد رجال أمن الدولة إلى المعتقل».

«ولا يحتاج الأمر بعد ذلك أن نصف خريطة الدفاع. . . كانوا يتكلمون «أداء واجب» وتبدى الأمر كمسرحية غير مقنعة الإخراج».

(٧٦)

وبعد أن يصل رفعت السعيد إلى وصف ما حدث على أنه «مسرحية غير مقنعة

الإخراج» على نحو ما رأينا لتونا يفاجئنا بما فوجئت به المحكمة نفسها من تغير توجه النظام الناصرى واتجاهه بكل قوته إلي الأخذ بالمبادئ التى كان يحاكم عليها رفعت السعيد وأقرانه . . . وهكذا بدأ المحامون فى المشاغبة، كما بدأ المتهمون يرددون الحديث عن أدوارهم البطولية فى ١٩٥٦ . . . ومع هذا فإن الأحكام الجاهزة كان لابد لها أن تمضى لتحكم على هؤلاء اليساريين بالسجن . . . . كى تزيد إحساسهم بالغربة والاغتراب فى ظل النظام الناصرى الذى أخذ لتوه بالتأميم فى قطاعى البنوك والصحافة :

«لكن القاضى مسكين . ألم أقل من البداية إنه مسكين وسيئ الحظ» .

«فأثناء المحاكمة صدر أول قرارات التأميم . . تأميم الصحافة والبنوك» .

«والتهمة الموجهة إلينا وفق نص المادة ٩٧أ من قانون العقوبات هى : الدعوة للاعتداء على ملكية الغير والمناداة بالتأميم» .

«وتنفس المحامون بعضا من المشاغبة» .

«وأخذوا يدافعون عن التأميم (والاعتداء على ملكية الغير) باعتباره سياسة رسمية مقررة . . . والقاضى مرتبك، وحتى المدعى العام المدرب حاول أن يسد هذه الثغرة فتحدث طويلاً . . . فزاد الأمر ارتباكًا، كان يهاجمنا فيبدو وكأنه يهاجم عبد الناصر . ويدافع عن عبد الناصر ، فيبدو وكأنه يدافع عنا . وشعر الفريق بملل وارتباك فأسكته . وسكت» .

«ومضت المحاكمة مرتبكة، وزاد ارتباكها عندما بدأ المتهمون فى الدفاع عن أنفسهم، وفى استدعاء شهود النفى، حيث وقف أبطال معركة بورسعيد (١٩٥٦) ليشهدوا أن بعض المتهمين كانوا أول من اقتحم بورسعيد المحتلة، ونظموا المقاومة الشعبية فيها» .

«وزاد من ارتباك المسكين أن تعالت نبرة التأييد مستندة إلى حائط التأميمات الجديدة .

«أخيرًا تنفس الفريق الصعداء، وأنهى المحاكمة» .

«وعدنا مرة أخرى سجوننا وإلى ما كنا عليه، سلبوا منا ملابسنا وأحذيتنا، باختصار عدنا كما كنا. ولم يجرؤ القاضى على أن يواجهنا ليتلو علينا أحكامه وفق نص القانون، فالمتهم الأول فى القضية (شهدى عطية) استشهد فى غمار حوار ناصرى ذى طبيعة نازية جرى فى واحد من أبشع سجون الناصرية أوردى أبو زعبل. وكان الفريق يعرف أننا سنحمله المسئولية، فقد حذرناه المسئولية، فقد حذرناه أكثر مرة، لكنه أكد أن المحكمة تأمر «أن يُعامل المتهمون معاملة حسنة».

«وابتكروا شيئًا غريبًا. أن ينتقل المدعي العسكرى وحده إلى السجن ليبلغ كل متهم بالحكم الصادر ضده. وذات يوم، تعالت صرخات السجانة بانتباهات متعددة ووقف ضابط ينادى علينا واحدًا، واحدًا».

«فالمدعى لم يتجاسر على مواجهتنا مجتمعين... ولكن واحدًا.. واحدًا».

«ونودى علىَّ... صفان من العسكر يحملون العصى لكنهم لا يستخدمونها: اجرى، كل منهم يأمر، وأجرى فى المجرى بين ضفتى العسكر لأجد نفسى فى غرفة المأمور، والمدعى العسكرى واقف بقامة مستقيمة كأنه فى طابور عرض. نادى الأم، قلت: نعم. قال: خمس سنوات أشغال شاقة. ربما لم أدهش، رغم أن المحامين أكدوا وببساطة شديدة أننى سأنال البراءة. فقد ضبطت فى الشارع، وليس معى أى مضبوطات».

«أنا على الأقل لم أكن أتوقع البراءة.

«وعندما قال: خمس سنوات أشغال شاقة».

«كان يجب أن أقول شيئًا. وأفلتت منى ـ لا أدرى كيف ـ كلمة... متشكر».

«واستدرت لأمضى. لكن المدعى أحس أننى أتهكم عليه، فصاح صارخًا تعال هنا... واستدرت إليه فسأل غاضبًا: متشكر على إيه... أنت بتتريق حضرتك.

تدخل المأمور مستعطفًا: لا يا أفندم، ده أصله مؤدب وابن ناس.

لكن المدعى صرخ: ودوه التأديب.

وبقيت فى التأديب بعضاً من زمن.

ثم رحلنا إلي المحاريق».

(٧٧)

ولا تتوقف المفارقات التى يجيد رفعت السعيد التقاطها عند حد، ومن هذه المفارقات رواية طريفة، بل هى فى غاية الطرافة عن لواء فى مصلحة السجون تعجب من أن يكون هناك شيوعى لا يفهم لدرجة أن يتوقع أن يكون هناك قانون حقوق إنسان فى مصر بعد كل ما جرى له ولأمثاله من الشيوعيين من تعذيب وتنكيل.

ولنقرأ هذه القصة ذات الدلالات المتعددة:

«. . . وفى اليوم التالى يحملوننا حملا مغلفين بالقطن والشاش إلى المحكمة، وتكون المهزلة، فالجلسة الافتتاحية يحضرها الأقارب والصحفيون، ويحضرها أيضا مندوبان للجنة حقوق الإنسان العالمية، ولاتحاد الحقوقيين العالمى أرسلهما رفاقنا الباريسيون، ويفزع الجميع، يتعالى صراخهم، الأهل لا يستطيعون التفتيش عمن يخصهم بين أكوام القطن والجبائر المتشابهة، سيادة الفريق أركان حرب رئيس المحكمة يقطر خجلا وهو يصيح: «ترفع الجلسة» ويسرع خارجا وخلفه بقية الحاشية العسكرية».

«ونعود للسجن ليتلقى المأمور تأنيبا شديدا، ويأتى وعلى الفور اللواء محمود صاحب أحد قادة مصلحة السجون ليحاول أن يمحو آثار هذا الحوار غير الملائم، والذى أتى فى وقت غير ملائم».

«فتح صاحب باشا الصناديق واحدا بعد الآخر، واسانا فى رقة، معلهش، أنتم رجالة، استحملتوا كتير، استحملوا دى كمان علشان خاطرى، غلطة ومش حتتكرر».

«وكان اللواء صاحب معروفا بهدوئه وابتعاده المتعمد عن الحوارات الشرسة، والتعذيب، ورفضه له، ولهذا شعرنا دوما بقدر من الاحترام له، وكانوا يعرفون ذلك، فأتوا به ليهدئ من ثائرتنا، وليعدنا ومن جديد للمحاكمة التى تقرر أن تبدأ سرا بعد أسبوع».

«كنا نتقبل مواساة اللواء هادئين، فماذا يمكن أن نفعل أو أن نقول؟».

«انتهزت الفرصة وطلبت منه بعض المطالب الصغيرة فوافق على الفور آمرا المأمور بسرعة التنفيذ، لاحظ أننى أقف بصعوبة وسألنى عما بى؟ أشرت إلى رقبتى، تحسسها فى حنان، وقال ضاحكا: العب شوية رياضة، وأمر المأمور أن يترك الصندوق مفتوحا لأتمشى فى الممر».

«وفيما أبدأ أولى خطواتى المحاذرة والتى كانت كل منها تشع بألم خاطف كماس كهربائى صاعق، وجدت اللواء ينفجر كوحش شرس وشتائم بذيئة تتسارع نحو الصندوق التالى، ثم إلى قبضة حديدية لشاويش شرس تقبض على عنق نوبى نحيل لتجره، بينما الباشا يصيح خد الكلب ده على التأديب، فتى نوبى ضئيل كنواة البلح، وأسمر مثلها اسمه سيد حسن عبده».

«وفيما أحاول تجربة المشى من جديد، كان الباشا عائدا، ابتسم فى مودة: شد حيلك».

«تجاسرت وعاتبته، انتحى بى جانبا وسألنى: الولد ده شيوعى معاكم؟».

«قلت: نعم».

«لازم تطردوه».

«ليه؟».

«عشان حمار وابن كلب».

«وأخيرا حكى لى القصة، فتح صندوقهم وأطل عليهم بابتسامته محاولا مواساتهم، لكن الفتى النوبى النزق، صدق الرجل، فقال: إن ما فعلوه فينا مخالف للقانون ولحقوق الإنسان».

«ويمضى الباشا مفسرا سر معاقبته للرفيق، تصور بعد كل اللى جرى لكم لسه بيتكلم عن القانون وعن حقوق الإنسان، حيفهم امتى أن البلد دى ما فيهاش قانون، ده لازم تطردوه من عندكم، عيب يبقى معاكم واحد مبيفهمش».

«ولم أجد ما أجيب به الباشا».

«فقط رجوته ألا يبقيه فى التأديب».

«واستجاب الباشا».

. . . .

. . . .

وعلى مثل هذا النحو الطريف والذكى والمؤلم فى الوقت نفسه تنتهى معظم فقرات هذا الكتاب النادر والحصيف والممتع!

***

obeikan.com